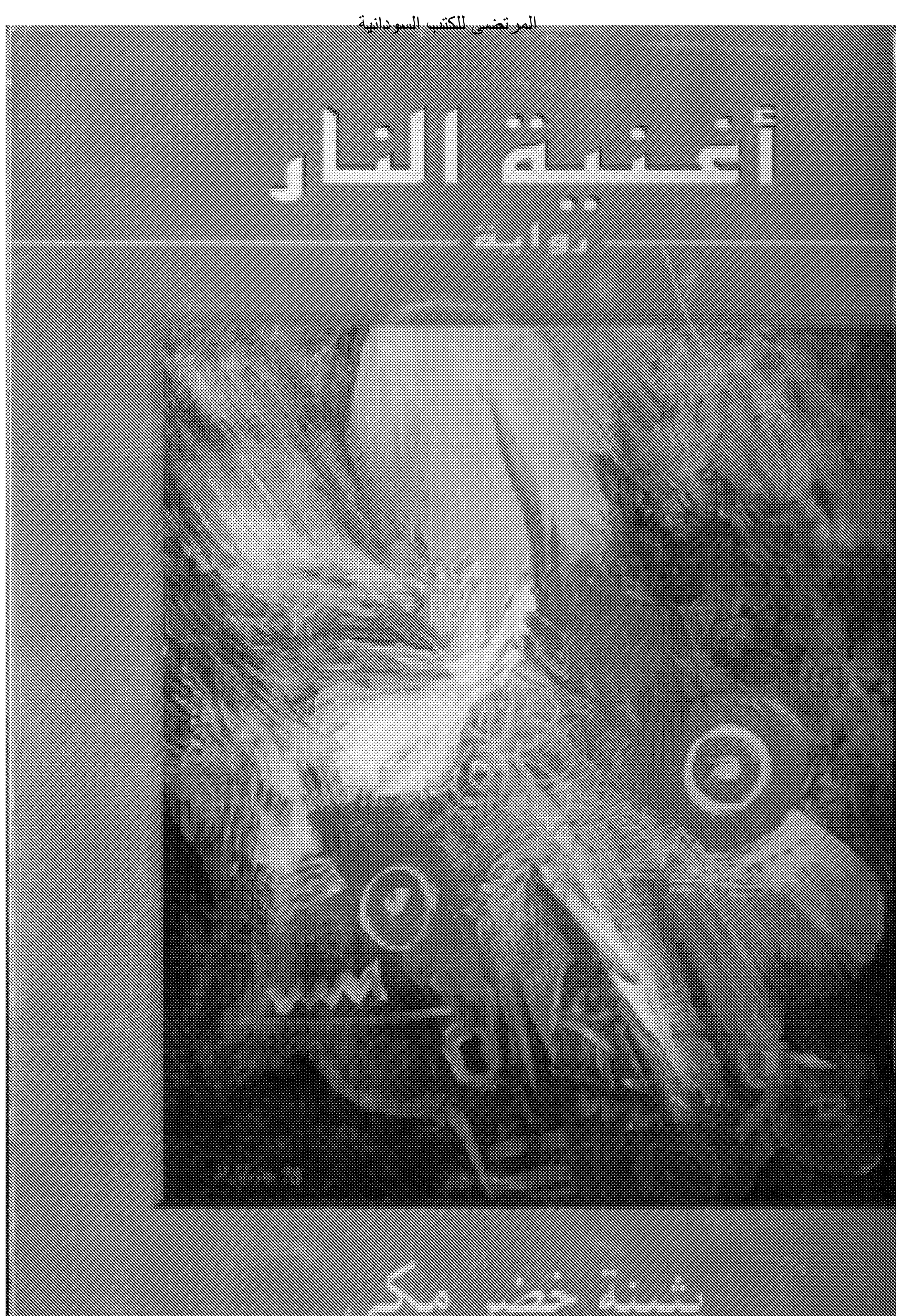
المرتضى للكتب السودانية




أغنية النار
رواية
بثينة خضر مكي

● صورة الغلاف : الفنان حيدر ادريس

تصميم الغلاف : الفنان ضياء الدين الدوش



● رقم الإيداع : إ.ع.ش ٣٩٠٣

دولة الإمارات العربية المتحدة

الطبعة الأولى ١٩٩٨

● الناشرون : دار سدرة للطباعة والنشر والتوزيع

المقر الرئيسي : الخرطوم - السودان

هاتف : - ٧٢٠١١٢

الخرطوم - السودان

ص.ب : ٨٣٢٢ بريد العمارات

الرمز البريدي - ١٢٢١٧

الخرطوم - السودان

أو

ص.ب ٢٠٣٢٢ بريد الكورنيش

الشارقة - دولة الامارات العربية المتحدة

إهداء

إن الألى بلغوا الكمال وأصبحوا

ما بين صحبهم سراج النادي

لم يكشفوا تلك الدياجي بل حكوا

أسطورة ثم انثنوا لرقاد

«عمر الخيام»

«١»

والدتها، لا تزال نائمة في الفراندة المطلة على الحوش زوجها في مأمورية عسكرية، ولا أحد غيرهما في هذا المنزل الشاسع، سوى الخدم الذين ينامون في غرف بعيدة عن المبنى الداخلي.

فركت عينيها في ذهول وكأنها لا تصدق !!

رنّ جرس الهاتف كثيراً بالأمس في تمام الساعة الحادية عشر مساء، نهضت في سرعة تترنح بين النعاس واليقظة، لكنه توقف عن الرنين حين وصولها إليه.

رجعت إلى فراشها وقد تيقنت انه هو.. محمود وليس غيره.

كان قد تحدث إليها قبل ثلاثة اسابيع، كانت خطوط الهاتف رديئة جداً كالعادة.

أخبرته أنها ستسافر لزيارة والدتها المريضة، وأنها ستمكث في قريتهم في أقصى الشمال عند ضفاف النيل لمدة اسبوعين حتى تستطيع أداء واجبات العزاء، وتهاني الأفراح لأهلها هناك.

قال مشاغباً :

- إذن.. فأنني موقوف عن الحديث معك لمدة.. أسبوعين.. يعني قرنين من الزمان

ضحكت وقالت:

- عليك بالصبر.

- لن أستطيع حبيبتي أن أصبر حتى ذلك الموعد!

لا تزال تفرك عينيها وكأنها لا تصدق!!

نهضت نصف جالسة على سريرها .. وسياط من الألم العنيف تجلدها في قسوة

تك.. تك.. تك...

هذا الصوت يصدر من داخل رأسها .. من مراكز المخ مباشرة..

ماذا لو أغمي عليها الآن.. لو أنها ماتت فجأة!!

من يغيثها ووالدتها عاجزة عن إغاثة نفسها!!

وهل تراها ستفكر في الإستغاثة فعلاً لو أنها عرفت ان قلبها سيتوقف عملياً عن ضخ الدم لهذا المخ الذي عجز عن الفهم!!

مدت يدها بآلية شديدة وأغلقت المذياع الصغير الموجود بجانب سريرها.

لم تسمع بقية الأخبار، توقفت كل حواسها عند تلك الكلمات..

«توفي أمس بالسعودية إثر نوبة قلبية مفاجئة الدكتور محمود كمال الدين ويصل الجثمان في الساعة الثالثة مساء، ويتم الدفن بمقابر فاروق ويقام المأتم..»

غيوم سوداء ثقيلة – لم تهطل – كانت الدموع في عينيها.

حاولت أن تحرك جسداً مشلولاً بفعل المفاجأة، واستطاعت بعد جهد أن تضع قدميها على الأرض، وأن تقف، حافية. تجاهد المشي إلى داخل غرفتها.

أوصدت الباب من الداخل. شعرت بالإرهاق وكأنها مشت دهراً من الزمان.

جلست على طرف السرير.. هل يمكن أن يكون ما سمعته صحيحا!!

صفقت يداً بأخرى. نهضت واقفة. أخذت تدور في أرجاء الغرفة الضيقة.

جلست على الأرض. مدّت ساقيها أمامها. أخذت تحرك قدميها واحدة بالأخرى في عصبية هوجاء. ثم اخذت تصفق بيديها في حسرة. وحتى تلك اللحظات، لم تنزل دمعة واحدة من عينيها.

بدأت بالتأوه. شبكت كفيها الإثنين فوق رأسها. تمايل جسدها يمنة ويسرة في حركة رتيبة بينما اطرافها ترتعش.

ثم انبثق الدمع شلالاً ينفجر، ساخناً، من مقلتيها. وأخذت تبكي وتنوح، وهي تحاول عبثاً كتمان صوت نشيجها.

«٢»

كانت الأيام تمضي، رتيبة الإيقاع، عديمة الجدوى وهي تحس بنفسها كشجرة جدباء عاجزة عن إيجاد الثمر. فاجأت زوجها يتأملها بدهشة وحزن.

- ماذا بك؟! كأنك تتأمل إمرأة غريبة عنك.. كأنك تراني للمرة الأولى!

قال باقتضاب:

- أنني فقط أتعجب واندهش!!.

كان في تعبيرات وجهه شيء غير مريح.. شيء قاس وبارد.

خشيت لو سألته أن يقول شيئاً يحطم قلبها، وقد صار يكثر من التلميح الى مسألة عدم انجابها في الفترة الأخيرة.

كان منذ زواجهما يغرقها بالهدايا والعطور والأثواب الجميلة لكنه بعد حضورهما من لندن اصبح مقتراً عليها يعتذر دائما بأنه خسر كثيراً في العملية الجراحية التي أجريت لها في أحدث المستشفيات وعلى يد أشهر

الراهن.. كانت جراحة عقيمة الفائدة باهظة الثمن - حقاً - مادياً ونفسياً. وقد كان الطبيب صريحاً معها وقال ان نسبة نجاح العملية ضئيلة جداً ولكنها تشبثت بالأمل الضئيل وقررت عمل الجراحة على أمل ان تنتهي سنوات من الإنتظار اليائس. وليس أمامها مجال للمجازفة ببقية سنوات خصوبتها كإمرأة. لم تقتنع بما قاله لها الأطباء في بلادها من أن عدم إنجابها يعود إلى عيب خلقي في الرحم ولدت به وأن نسبة نجاح العملية ضئيلة جداً. قال زوجها أنه غير يائس من رحمة الله وانه يحبها لذاتها ولا يريد اطفالاً. حاول إقناعها بأن عليها عدم المجازفة بإجراء العملية التي ربما أودت بحياتها.. لكنها أصرت وتوسلت إليه فأجابها على طلبها.

ودخلت في حالة نفسية سيئة بعد فشل العملية واستطاع الأطباء بجهود خارق إنقاذها من حالة إكتئاب حادة اصيبت بها. كانت ترفض الأكل والحديث مع كل شخص حتى زوجها وتبقى طوال الليل ساهرة مفتوحة العينين تحدق أمامها في ذهول.

كانت زيارتها تلك للندن من أشق لحظات عمرها وكانت ذكرياتها عنها في منتهى القتامة لذلك وعندما جاءت الفرصة لزوجها في السفر إلى لندن لشراء معدات طبية للمستشفى العسكري المركزي الجديد الذي تقوم الحكومة بإنشائه لجرحى الحرب الذين ينقلون من جنوب البلاد صممت على الذهاب مع زوجها وقبل هو بذهابها بعد أن أخذ منها وعداً قاطعاً بعدم التعرض لزيارة أي طبيب أو حتى التلميح الى معاودة العلاج.

قالت لها صديقتها سناء:

- حاولي ان تستمتعي بحياتك وجمالك. الحياة حلوة تستحق ان

تعيشها وهناك جوانب أخرى كثيرة في شخصيتك يمكنك أن تسعدي بها وتسعدي بها الآخرين من حولك.. إن هذا الحزن وهذه الكآبة والقيود التي تفرضينها على نفسك لا تشبهك..

كان الجميع من حولها لا يعرفون شيئاً من نتائج العملية التي أجرتها في زيارتها الأولى للندن قبل خمس سنوات فقد اتفقت مع زوجها على عدم إعلان هذا الموضوع وكتمانه عن الأهل والأصدقاء، حتى تجنب نفسها نظرات الرثاء، والإشفاق التي كانت حتماً ستحيط بها من كل جانب.

جمالها وشخصيتها الحيوية ساعداها كثيراً على تخطي تلك المرحلة العصيبة ولكن الذي شفاها حقاً هو اتجاهها نحو الكتابة وقد كانت منذ بداية المرحلة الجامعية تكتب مقالات متفرقة وبعض القصص تنشرها في المجلات والصحف المحلية وفي نشرات الجامعة الثقافية. كانت متحدثة لبقة، شديدة الثقافة وعارفة بعلوم اللغة والخطابة.

إتجاهها للعزلة وعزوفها عن المعارف والأصدقاء بعد العملية الجراحية واتجاهها للقراءات الواسعة والعميقة قوّى في نفسها شهوة الكتابة.. أصبح تأطير الورق وإخراجه بألوان الحبر هو عشقها الوحيد والحبيب الذي أعاد إليها ثقتها بنفسها. تلقاها المجتمع الثقافي بالترحاب ولاقت رواياتها الأخيرة الكثير من التقدير والنجاح.

كانت تشعر بعبثية وجودها العقيم في الحياة التي كان من الممكن أن تكون أشد قتامةً وقسوةً لولا أن طعم الأيام الحلوة التي عاشتها في لندن في زيارتها الثانية كان يهدهد روحها ويمنحها شعوراً جميلاً بالمحبة وجدوى الإستمرار في عالم الوجود.

كيف يمكن أن تصدق أن محموداً قد مات!!

رحل هكذا .. فجأة دون سابق انذار أو وداع ؟؟

كانت الذكريات تهاجمها في عنف وقسوة.

كان واقفاً على الرصيف المقابل. لاحظت قامته الفارعة الضخمة من بعيد. لم تتبينه في البداية. لكنه كان قد عرفها منذ الوهلة الأولى التي أطلت فيها على رصيف «اكسفورد ستريت» ووقف ينتظرها. فاجأتها رؤيته. ثم أفلتت منها أشواقها وهي تمد إليه يدها في ترحيب.

- أهلاً دكتور محمود كيف حالك!

- أهلاً بك أنت.. كيف حالك وحال البلاد التي جئت منها؟ لماذا لم تخطرينا بحضورك؟ كنا فرشنا شوارع لندن كلها سجاداً أعجمياً أحمر.

ضحكت وهي تضع يدها على كتفه ترد تحيته بطريقة أهل السودان عندما يلتقون بعد غياب.

إحتضنها بسرعة ثم ألقى على كتفها وأضاف في لهفة وفي عينيه بريق..

- أنت لم تتغيري أبداً. لم يؤثر فيك دوران السنين ولا كرّ الايام. لعلك تقطنين كوكباً آخر غير هذه الأرض قولي لي.. ماذا تفعلين بنفسك؟

تملصت من لمسته بصعوبة وهي تشاكسه ضاحكة.

- الناس كالأشياء.. البعض يهلكه كرّ الأيام فيبلى ويصدأ والبعض يترعرع مع مرور الأيام فينضج ويتعتق.

تفحصها في إعجاب وهو يقول:

- وأنت في كل مرة أراك فيها بعد غيبة سنوات طويلة يتعتق جمالك

وتزدادين نضجاً وبها ء!!

ثم أطلق ضحكة عابثة وهو يقول:

- وتزدادين تعقلاً. وهذا ليس من مصلحتي في شيء.

قالت الجارية:

- يامجنون.. أنت لن تتغيرا أبداً.

طاف المكان بنظراته وقال:

- تعالي نجلس في مكان مريح.. أم تريدينني أن أحدثك واقفاً؟! عموماً لن أستغرب لهذا فأنت دائماً سادية في تعاملك معي.. لكم أشتاق الى عنجهيتك.. وقسوتك غير المبررة احياناً أوحشني والله كثيراً ذاك النفور الجميل.

تلفتت حولها في حذر وهي تتجاهل عباراته الأخيرة عن عمد...

- أنا لن أجلس معك في مكان عام.. انت من رموز المعارضة السياسية.. ولو رآوني اتحدث معك؟؟

- ياجبانة.. المدهش انك جبانة ومغرورة في نفس الوقت!! أمرك ياسيدتي الجميلة، تعالي نجلس بداخل هذه المكتبة، أنا اعرف صاحبها. وفيها مكتب داخلي يمكن أن نجلس ونتحدث فيه ولن يراك أحد.

قال في لهفة حال جلوسهما..

- كيف حال الوطن.. يا وطني العزيز؟!

- الوطن بخير ومشتاق لك، رغم انك اتخذت وطناً ثانياً في الغربة ولك زوجة إنجليزية رائعة.

- لكن الوطن الأول يظل في قلوبنا دائماً، حيث مراتع الطفولة ونزق الصبا وطيش الشباب والبيت الكبير، نحن نتعلق من «عراقيننا»

وأبوفنا وأقانا فوق شجر السيال والنبلدي والطلح ونهفو إلى النم البابي والنخيل.. رغم أننا نعيش هذه الحياة المتحضرة ونقطن في ربوع الريف الإنجليزي بكل ما فيه من جمال الطبيعة الخلاب.

كانت تتابع حديثه في هدوء دون أن ترد عليه.

توقف عن الحديث عندما لاحظ صمتها. تنهد ثم قال:

- دعينا نخرج من هنا المكان ونتناول مشروباً.. مرت سنوات طويلة منذ التقينا آخر مرة.

- لن استطيع بكل أسف. سيكون زوجي منتظراً في الفندق. هو هنا في مهمة عمل رسمية وقد حضرت معه كنوع من التغيير ولم أتوقع أبداً لقائك. إنقطعت أخبارك عني منذ مدة طويلة وإن كنت أتابع كتاباتك السياسية في الصحف التي يحضرها خلسة بعض المسافرين من القاهرة.

قال فجأة..

- هل لايزال زوجك يعمل مع الحكومة؟

- زوجي طبيب في الجيش من قبل مجيء هذه الحكومة. ومن قبل الحكومة التي سبقتها أيضاً.

كان ينظر بعيداً.. يتطلع إلى الأفق وهو يتحاشى النظر في عينيها تتابعت في مزاح..

- أنا أعدك بأن أجبره على تقديم استقالته اذا وجدت له عملاً في المستشفى العسكري بلندن. هذه المدينة جميلة جداً ورائعة ومكتظة بالمكتبات التي تبهرني.

نظرت الى ساعة يدها في قلق.

تأملها طويلاً وهو يودعها وقال:

- متى تغادرين لندن؟

- بعد شهر تقريباً.

- فقط؟ لابد أن أراك غداً إذن.. بل كل يوم؟!

- .. هاك رقم تليفوني.

«٣»

زوجها خرج مبكراً. لا شيء أمامها سوى التسكع في شوارع لندن المزدحمة المتاخمة للفندق الذي كانت تقيم فيه. وقفت أمام أحد المتاجر، تفحصت باندهاش مجموعة من التحف الكريستال الفنية الرائعة الصنع. أباجورات ولمبات إضاءة وتحف يذهل العقل جماله. هل يمكن أن تقتني تحفة واحدة تحملها معها الى السودان؟ وأين ستعلقها.. في الفراندة المسيجة بسلك النملية حيث تضع طاولة الطعام.. أم في داخل الصالون؟! ضحكت في خيالها وهي تتصور «التحفة» الكريستال الجميلة وقد تلألأت مثل قطرات الندى وهي مذكوكة «مكندكة» بذرات التراب الناعمة إثر هبوب «كتاحة» تعصف بها لا يستطيع ردها عنها قماش الدمورية الذي عملت على تبطين الستائر الغالية المستوردة من اليونان به حتى لا تتسلل جيوش الرمل من خلاله دون جدوى.

قطعت الشارع في حذر وسرعة للرصيف المقابل.. لم تستخدم خطوط

الشاة.. لأنها بعيدة عن مكان والدها.. لكنها انتهزت فرصة خلو الشارع من السيارات وعبرت مسرعة. وقفت أمام متجر كان يبدو من مظهره أنه يبيع «الإلكترونيات» قرأت الاسم بتمعن «اسباي شوب».

اندهشت كثيراً حال تخطيها عتبة المحل التجاري. كان متجراً لبيع أدوات التجسس. مسمار صغير يدخل في تركيب مروحة الكهرباء في السقف قد يكون جهازاً للتجسس. أو مسمار «فلاورشه» يثبت في براءة تامة «كبيل الكهرباء» أو جهاز معدني صغير يوضع في قعر إناء الزهور. كلها أدوات تجسس. أما ما جعل حواسها تتوتر بشدة فقد كان أجهزة التنصت الهاتفي.

استمعت لشرح موجز من أحد العاملين في المحل.

قال وهو يقلب أحد أجهزة الهاتف التي تبدو عادية في الشكل..

- أنظري إلى هذا المسمار الصغير.. إن به جهاز تسجيل كامل.. يسجل المحادثات والأرقام ومواعيدها بالدقيقة والثانية.

ثم ضحك في نذالة وهو يقول متخابثاً:

- إن أكثر الذين يشترون أجهزة التنصت الهاتفية هم العرب!!

ابتعدت عنه وقد شعرت بالغثيان من حديثه.. لابد أنه يهودي أجير مأفون.

لكنها في قرارة نفسها شعرت برعب حقيقي وهي تتصور أن زوجها من الممكن أن يضع جهازاً مثل هذا في هاتف منزلهم.

أحست بالتعب، فكرت بالجلوس على أحد المقاهي الجانبية في محطة (بيز ووتر). عندما جاءها النادل الشاب، عربي التقاطيع، تأملته قليلاً ثم طلبت سانتدوتشاً وقهوة تركية. وضعت الصحف التي اشترتها من

المكتبة أمامها وأخذت تقلبها في غير اهتمام.

فاجأتها الأصوات العالية والضحكات المجلجلة واقتحمتها اللهجة السودانية في عنف. أمامها تماماً كانوا يجلسون. تعجبت كيف لم تلاحظ وجودهم عند دخولها!!

كانوا مجموعة غير متجانسة من السودانيين تجمع بينهم على ما يبدو الإهتمامات الثقافية والسياسية، فقد بدت أشكالهم متنافرة تماماً. حركت نظراتها إليهم لابد أن الذي أمامها مباشرة حامل لحق اللجوء السياسي، تبدو في عينيه الخيبة وحزن المهاجرين المبعدين عن بلادهم، وذلك الذي يجلس على يساره يبدو صغير السن نسبياً مثل الذي يليه.. ربما كانوا طلبة. وهذا المترهل، البدين، الذي تجلجل ضحكاته أكثر علواً من الآخرين.. لابد أنه جاء في إجازة عابرة!!

كانوا يجلسون وبينهم وبينها ساتر ديكور وضعت عليه بعض أصص الزهور الطبيعية. كان في إمكانها استراق النظر إليهم دون أن يروها.

أخذت ترتشف قهوتها وتسلّي نفسها بمراقبتهم. عيونهم تتحرك في دورات سريعة، تلتقط السيقان البيضاء العارية، والعيون الخضراء والشعر الذهبي الذي يتطاير يمنةً ويسرة في دلال عابث، ونظراتهم تتابع في ذهول مهرجانات الأناقة والجمال الممتدة بطول الشارع وعرضه. تحولت فجأة عيونهم وتركزت حول شابة سمراء، فارعة الطول، يلف جسدها ثوب سوداني زاهي الألوان. تبخترت في مشيتها وسط الشارع المزدحم فتزاحمت نظراتهم حولها.. نظرات أصحاب العيون العسلية والشعر الأسود المولودون كلهم في اليوم الأول من شهر يناير.. سواء كان ذلك في المستشفى أو على يد الداية (ست النفرا).

أخذوا يتطلعون - كلهم - في شوق، الى الثوب، الذي يختم في ثناياه الأم والأخت والحبيبة الأولى. تملكتها متعة غامرة وهي تستغرق في مراقبتهم وتتبع حركاتهم و الإستماع إلى تعليقاتهم الماجنة.

ركزت عينيها بصفة خاصة على وجه الرجل الوسيم الذي حدست إنه ربما كان من قدامى السياسيين المقيمين في لندن أو من المعارضين لنظام الحكم العسكري القائم في السودان. كان يبدو من شكله وكأنه تخطى الخمسين من عمره. تعرفت على مقدمة رأسه صلعة لامعة. كان متوسط السمرة يتحدث في مرح، ويضحك ضحكاً صاخباً، لكنه حين يصمت تتمدد في عينيه أحزان القرون في العالم الثالث. كانت تتأمله في اهتمام، ولكنه فجأة انتبه اليها. نظر اليها نظرة طويلة حائرة متفحصة وكأنها مشكلة سياسية إعترضت عليه الطريق دون انتظار. بوغتت باكتشافه لها. إرتبكت للحظات، ثم عاودت النظر إليه وابتسمت وكانت على شبه يقين من إنه لن يحدث الآخرين عن وجودها وملاحظتها لهم.

رفع يده الى رأسه في إيماءة خاصة بالتحية. رفعت يدها واستلمت النادل. دفعت الحساب زائداً « البقشيش» ثم انصرفت بسرعة.

خرجت إلى الطريق. كان بارداً موحشاً برغم الزحام.

لا زال أمامها ساعاتان على موعد حضور زوجها.

وقفت أمام واجهة إحدى المكتبات العربية تتفحص عناوين الكتب والمجلات.. دواوين شعر لنزار قباني واحمد عبدالمعطي حجازي ومجموعات كاملة لكتابات غادة السمان وجمال الغيطاني وإدوارد الخراط وفرانسواز ساجان وكاتبات لم تقرأ لهن من قبل. مجموعات من كتب التراث العربي ورسائل الجاحظ، الإمامة والسياسة والإمتاع في

علم النكاح والروض العاطر في نزهة الخاطر، متعة النفوس.. وترجمات متعددة وتفاسير للمصحف الشريف. معالم وخرائط جغرافية وليس هناك كلمة واحدة مطبوعة لكاتب سوداني!!

– أواه .. يا بلدا

قالتها لنفسها في حسرة. ثم ترددت وسألت البائع عن كتابات سودانية فقال:

– كتابات أدبية؟ عن ماذا تبحثين قصة أم شعر ؟

–أي شيء يمكن أن يقرأ لكاتب سوداني.

ضحك البائع، ثم تحدث إليها باللغة العربية. وتبينت على الفور لهجته الشامية.

– كانت عندي مجموعات للطيب صالح لكنها نفدت. ولم أستطع التحصل على غيرها. لماذا توقف الطيب صالح عن الكتابة؟

تجاهلت سؤاله. فتشاغل بالبحث وهو مستمر بالثرثرة في موضوعات مختلفة، بين الأرفف الكثيفة، بمختلف العناوين العربية ثم صاح ظافراً:

– ها قد وجدت لك كاتباً سودانياً.. هذا هو.. د. منصور خالد.. هذا كتابه النفق المظلم.

إبتسمت، تناولت الكتاب وتفحصته. يبدو الثمن باهظاً، لن تحتمله ميزانيتها. ثم إن هذا الكتاب موجود بمكتبتها بالسودان. قرأته من زمان طويل، ولم ترجع اليه أبداً فهي ليست من هواة القراءات في السياسة ولكن الآن.. في هذا المكان.. في هذا الوقت الذي تقتلها فيه الوحشة في شوارع لندن الباردة. كان للكتاب رائحة عروس دائقة مخضلة بعطور الصندل والمحلب والمسك. وللمسه رقة «الأيري الأبيض».. في

حيشان أم درمان...

ابتسمت للبائع . شكرته. أعادت إليه الكتاب وهي تقول:

- اشكرك.. سأعود إليك مرة أخرى.

إستدارت لتخرج من المكان الضيق المزدحم بالكتب والمجلات. وفجأة .. امتدت كف تربت على ظهرها في مودة. التفتت في سرعة و انفعال. وكانت مفاجأة سارة.. فوق تصورها حين أطل عليها وجه صديقتها سعاد!!

جلستا في أحد المقاهي واخذتا تثرثران. كانت فرحتها لا توصف بلقائها بعد غيبة سنوات طويلة. جاءت سعاد مع زوجها في بعثة دراسية الى لندن. وبعد أربع سنوات نال زوجها بعدها شهادته التخصصية. رجع إلى السودان ورفضت هي رفضاً باتاً الرجوع معه بعد ان انفصلا رسمياً بالطلاق.. وكانا قد انفصلا روحياً بعد سنة واحدة من تواجدهما في عاصمة الضباب. حين اكتشفت ان زوجها يخونها كل ليلة مع غانية جديدة. بعد أن تكون الخمر قد لعبت برأسه. وهو يسهر في الحانات والأندية الليلية، يرقص فيها حتى مطلع الفجر.

قالت سعاد:

- ستلتقين بالكثير من رموز المعارضة السياسية هنا.. لندن هي مدينة السياسة.

قالت وهي ترقب الشارع.. وتتابع بنظراتها جموع المارة..

- بل هي مدينة العلم والجمال.

- عجيبٌ أمرك.. منذ أيام دراستنا الجامعية.. وأنت تهملين شؤون السياسة .. وتتجاهلينها عمداً.

- انني أترك هذه الشؤون للسياسيين وما أكثرهم في بلادنا.. أما أنا فتكفيني هموم الثقافة، وهموم بيتي وأسرتي..

- لكن هذا لا يعفيك من واجب الإهتمام بالشأن السياسي كمواطنة تملك قدراً من الثقافة والوعي.

قالت في ضجر:

- ألا تلاحظين إنه وفي كل الحكومات، التي مرت على البلاد، يكون الثلث فقط مع الحكومة.. والثلثين الباقيين يشكلان معارضة سياسية.. لا يغيرّ من هذه النسبة أبداً كون إن الحكومة شيوعية أو ديمقراطية أو إسلامية!!

ضحكت سعاد وهي تقول:

- لا زالت آراؤك كما هي.. منذ أيام الجامعة.. إنني أحسدك على هذا.. لقد سقطت عن عقلي كل القناعات التي كنت أتمسك بها أيام الحياة الجامعية واعيش في خواء فكري تام لأنني لم اجد افكاراً أخرى مقنعة لاستبدالها بها!!

كانتا تضحكان وتثرثران في لهفة.. تتخاطفان الموضوعات والذكريات أيام الجامعة وسنوات العمل الأولى، وعندما افترقتا، اتفقتا على أن تلتقيا في نفس المكان، وتذهبا في رحلة إلى الريف الانجليزي.

«٤»

زوجها كان مشغولاً بمهامه الرسمية وشراء المعدات الطبية للمستشفى العسكري الذي اقترب موعد افتتاحه في الخرطوم. استأذنته في قضاء اليوم في رحلة إلى الريف الإنجليزي بصحبة سعاد.. أبدى امتعاضه في البداية.. كان يعرف زوج سعاد ويعلم أنها انفصلت عنه بالطلاق وفضلت البقاء في لندن مع أختها المتزوجة. قالت له ان سعاد تعمل في وظيفة محترمة وهي صديقتها منذ أيام الدراسة، وليس هناك مبرر للإعتذار عن دعوتها.. ثم انها تحب رؤية الريف الإنجليزي وهو سيكون مشغولاً عنها طوال الوقت.. فوافق على مضض.

خرجت في الموعد المحدد للقاء سعاد.. وعند عبورها الرصيف في الطريق الى المقهى الذي تنتظرها فيه.. تذكرت الدكتور محمود ولقائها به.. وتمنت لو انه كان بإمكانها اصطحابه معهما في تلك الرحلة الريفية. وجدت سعاد في انتظارها.. كانت ترتدي فستاناً متوسط الطول

وبالظو من اللون البني الداكن وقد تركت شعرها الأسود مسترسلاً حتى كتفيها دون غطاء.. عند رؤيتها.. نهضت ترحب بها وهي تحمل حقيبة صغيرة بها بعض زجاجات العصير والساندوتشات الجاهزة وقالت...

- خشيت ألا تحضري.. سنذهب الى «سويندون» وهي مدينة جميلة في الريف الإنجليزي.. أنا أعرفها جيداً كنت أسكن فيها مع زوجي... هل تفضلين قطارات الأنفاق أم البص؟

- أفضل أن أتفرج على مشاهد الطبيعة الجميلة.

أسرعنا نحو موقف البص.. قالت لها في الطريق وهي تراها تحاول في جهد اللحاق بخطواتها السريعة:

- هذا الثوب الذي تتدثرين به.. ألا يعوقك عن المشي؟ ما رأيك ان تخلعيه؟ فستانك طويل وأنت تلبسين فوقه بلوفر من الصوف...

قالت في جزع .. ضاحكة:

- أرجوك اتركيني في حالي.. لقد كانت لي تجربة قاسية في هذا الشأن... في شهر العسل.. وفي مدينة باريس أصر زوجي على ان أخلع الثوب السوداني قال انه يعوق السير ويلفت النظر وهو إنما ابتكر أصلاً لحماية المرأة من النظرات المتطفلة.. وسمعت حديثه واستجبت لطلبه.. وكنت أرتدي معطفاً طويلاً له أكمام طويلة واعتمر وشاحاً أغطي به شعري.. إلا انني شعرت بالإرتباك والرهبة.. وتملكني الشعور بأنني أسير عارية كما ولدتني امي.. في الشوارع وسط ملايين الغرباء..

وضحكت سعاد حتى اغرورقت عيناها بالدموع..

جلسنا في مقعدين متجاورين.. كان البص مريحاً وهادئاً لدرجة مدهشة.

الركاب يتحدثون في همس وأكثرهم منهمكون في القراءة ابتسمت في سرها وقد تذكرت بصات الرحلات العادية في بلادها.. والأصوات الجلجلة التي تهز مقاعدها الخشبية الخشنة.

جاهدت النعاس في بسالة وهي تستقبل لوحة بعد أخرى من مناظر الخضرة الداكنة المحتشدة أمامها مدّ البصر بطول الرحلة من لندن مدينة الضباب الى «سوينثون» المدينة الجميلة.. كان حمقاً أن تسبل جفنيها ولو للحظات فصار عن كل ذلك الترف الجمالي وعيناها تخترقان كرنفالات الفرح المجنون بعشق الطبيعة الثرة الرائعة.. وتململت على ذاكرتها أطياف الزحف الصحراوي والرمال التي كادت تدفن بيتهم القديم في تلك القرية الكائنة على بعد أميال معدودة من النيل..

عند توقف البص في إحدى المحطات، همست لسعاد فأخذتها من يدها لتبحثا عن مواقع الحمامات.. وقفتا أمام باب مغلق.. وقف أمامه زنجي متين البنيان وقد استعصى عليهما الدخول عبر مزلاج من الحديد. تحدثت سعاد إلى الرجل.. في رقة ثم أخرجت بعض النقود من جيب معطفها..ناولتها له.. ضغط زراً صغيراً إلى جانبه.. فانفتح المزلاج. قالت لها..

- ماذا قال لك ذلك العبد الواقف عند الباب؟

- قال انه يجب علينا أن ندفع ثمان بنسات حتى نستطيع الدخول الى الحمامات.

صفقت كفاً بكف في استغراب وهي تقول..

- سبحان الله. حتى البول عندهم بالقروش؟!

وتذكرت الجدران في سوق مدينتها وشوارعها قد كتب عليها «ممنوع

التبول» بأقلام فحمية. وذكرت حائطاً بقرب المسجد مكتوب عليه ذات العبارة بالخط العريض وقد انتفخت الحروف وبدأ الحائط ينزّ بالسائل المشوع ورائحته وقد مال على جانبه حتى كاد يقع!!

كانت مناظر الحقول الخضراء المنبسطة في التلال والوديان تستهدفها تماماً وتغرقها في جو اسطوري حالم وهي تتابعها من خلال نافذة البص بينما راحت سعاد في إغفاءة، لم تنتبه منها إلا عند مداخل «سويندون». أعجبها منظر الأبقار الإنجليزية تقف في جمال وارستقراطية بطول الطريق.. الفارق كبير بينها وبين تلك الأبقار التي كانت تعايشها في قريتها من حيث الحجم واللون.

عندما رأت بقرة انجليزية ضاحكة تتدلل في إحدى محطات التلفزيون الأجنبية ظنت أن تلك البقرة عينة فقط.. واحدة ونادرة وما كانت تظن ان كل الأبقار عند «الخواجات» بمثل ذلك الجمال. مرة واحدة في السودان ضحكت بقرة في أحد الإعلانات لتصبح أكثر جمالاً في نظر من حولها.. فسارت بحكايتها الركبان وأصبحت حديث الحضر والبادية.

نزلتا في أحد الميادين الجانبية وتجولتا سيراً على الأقدام.. المدينة شديدة الهدوء.. جميلة جداً بسهولها ووهادها الشديدة الخضرة ومبانيها الإنجليزية التقليدية.

التحمتها أشعة الشمس ذلك الصباح. كانت تلقائيتها مثيرة لعجبها، التحمها عنفوان الطبيعة وجمالها. شعرت بالسعادة.. وتذكرت الدكتور محمود. ليته لو كان معها.. أو لو كانا معاً هما الإثنين فقط.. هو وهي .. لابد انه يحاول ان يستعيد معها جذوته المدهش الذي غيبته الظروف القهرية التي يعيشها تحت ضباب لندن.. لابد أنه يذكر الآن.. صدودها

العنيف له.. ولغزله الجرىء ومطارداته العاطفية لها في ممرات الجامعة وساحات الندوات الثقافية.

كانت تعتبر أن في حديثه الجريء معها وإعجابه المكشوف بها نوعاً من الوقاحة.. قالت له ذلك يوماً.. فحزن كثيراً.

قالت لسعاد..

- ما أجمل هذه البلاد.. أتمنى أن أقضي بها سنة كاملة.. سنة واحدة فقط فأنا لا أستطيع البعد عن أجواء الرياح الترابية الساخنة ورائحة المطر عندما تعانق التراب وموسيقى الفرق العوضية أكثر من ذلك.. أدمنت تلك السمفونية الرائعة للبؤس.. التي يعزفها الوطن العزيز مساء كل يوم.

- تعالي كل سنة في إجازة.. او إبق معنا للدراسة والتحضير للدراسات العليا.. زوجك له الإمكانيات المادية ليفعل ذلك.. وليس لديك أطفال يشغلونك.

- إنني أخاف الغربة.. ويثب قلبي الى حلقي فزعاً.. حين أتذكر وأنا على سفر ان الموت ربما يداهمني.. ويقشعر بدني وأنا أتخيل رجلاً أشعث الشعر له عيون خضر.. قريب الشبه بقطط سواكن المشهورة يحمل شاكوشاً ضخماً يدق به مسماراً وراء مسمار.. يثبت غطاء الصندوق الخشبي الذي أرقد أنا «مكرفسة» ميتة على قاعه الأسفل.

- الموت حق.. ولا تدري نفس بأي أرض تموت.. يا إلهي.. لماذا هذا الحديث الجنائزي.. هل أنا ناقصة نكد؟ تعالي نستمتع بهذا الجمال الذي يحيط بنا..

وتعالت ضحكاتهما في مزاح تجوب الشوارع في إنطلاقة لم يكن

مشروعاً لهما تعملها في الخرطوم.. كانتا تتسابقان وتقفزان كالأطفال الأشقياء.. إلتهمتا الساندوتشات وشرائح الخيار الطازج والمشروبات الباردة..

كان الوقت يمضي سريعاً وكأنها في حلم.. نظرت لساعتها وقالت لسعاد:

- يجب أن نذهب الآن.. لا أريد أن أتأخر كثيراً حتى لا يغضب زوجي ويمنعني من مرافقتك مرة ثانية.. أنا حتماً لا أدري كيف أشكرك على هذا اليوم الجميل الممتع.

عند وصولها إلى الفندق وجدت زوجها قلقاً في انتظارها.. برغم أن الوعد الذي حددته له لعودتها لم يكن قد حان بعد.. انحنت عليه.. وقبلت جبينه وهي تقول في مرح:

-كيف حالك.. أوحشتني كثيراً.

رفع حاجبيه في دهشة ولعله كان يتساءل فيما بينه وبين نفسه عما أصابها.

كانت دائماً متزنة وعاقلة أكثر مما يجب كما يقول.. كانت تستطيع أن تحاصر عواطفها في صرامة وتبقيها تستعر داخل قلبها دون أن تشي بها جوانحها..

ربما كانت تربيتها التقليدية المتزمتة هي التي فرضت عليها تلك الصرامة التي هي نفسها غير راضية عنها...

عندما جلسا لتناول طعام العشاء في القاعة المخصصة لذلك في بهو الفندق - ذلك اليوم - أخذت تحكي لزوجها عن رحلتها.. وترسل تعليقاتها المرحة... ولكنه ظل بارداً ولم يحاول مجاملتها.. ظلت

لحظات من الصمت حديثها مع زوجها. وضع الملعقة جانباً وقال:

- شخص إسمه الدكتور محمود اتصل بك.

لم تنبس ببنت شفة ولم ترفع عينيها من على الطبق أمامها.

- من هو الدكتور محمود؟

- كان أستاذي في الجامعة وهو صديق لأخي عادل... إلتقيته مصادفة أمس.

- ولماذا اعطيته رقم الهاتف..!!

- ماذا في ذلك؟ كان يريد أن يسأل عن أخبار البلد وبعض الصديقات من طالباته. إلتقينا في عرض الطريق ولم يكن هناك مجال للحديث فأعطيته رقم الهاتف..

أضافت بعد تردد:

- ما رأيك لو ندعوه لفنجان شاي.. وتتعارفان؟

رفع إليها عينيه في استنكار وهو يقول:

- ليس لدي وقت لمثل هذه الأشياء.

تنهدت في سرها في راحة. وحمدت الله.

لابد انها كانت ستخضع لكثير من اللوم والتقريع إذا عرف زوجها ماهية شخصية الدكتور محمود، أو حقيقة علاقته بها. وربما منعها من مقابلته مرة أخرى.

«٥»

في صبيحة اليوم التالي رنّ جرس الهاتف مرةً واحدة.. ثم توقف.. حدثها قلبها أنه هو..وخيل إليها أن زوجها يتلكأ كثيراً في الخروج. وبعد خروجه بأقل من عشر دقائق رنّ جرس الهاتف مرةً أخرى.. وسبقتها لهفتها بالتقاط السماعة.

– ألو..

– ازاي الحال.. هل الوقت مناسب للحديث أم أتصل مرة ثانية؟

– كلا .. الآن... زوجي خرج.. كيف حالك أنت؟

كان خوفها وارتباكها واضحاً.

ضحك.. وارتدت ضحكته كالبلور صفاءً في أذنيها. ثم قال ولازال صدى الضحك يلوّن ملامح صوته.

–انا في غرفة الإستقبال.. عندكم في الفندق.. هيا انزلي بسرعة.

فاجأتها جرأته.. تجمدت الكلمات داخل حبالها الصوتية. وضعت سماعة الهاتف دون أن تجد الشجاعة لقول كلمة واحدة.

نزلت الدرج القصير. نهض واقفاً حين رآها.. احتضنها في ترحيب، ووضع قبلة سريعة على خدها الأيسر. إرتجفت ودفعته عنها وقد أحست بالخجل الشديد يطوقها. يا لجرأته.. كيف يفعل هنا أمام كل هؤلاء الأعراب الذين يجلسون في بهو الإستقبال بالفندق؟ إن زوجها لم يتجرأ أبداً على تقبيلها علناً هكذا طوال حياتهما المشتركة؟ غلبته مشاعره جلس على المقعد المجاور لها وكانت تعلم انه يغالب عاطفةً قويةً تجاهها.. إستعصت عليه منذ زمان طويل.. ثم قال بعد لحظة صمت...

- تعالي نتحدث في الخارج.

تبعته في خوف وكأنها منومة مغناطيسياً. كانت تمشي خلفه بسرعة وكأنها تريد أن تنهي موقفاً حرجاً، مع شخص مجنون، دون أن تلفت إليها الأنظار.

وقف خارج الفندق، في انتظار خطواتها. مد يده إليها محاولاً الإمساك بيدها. فابتعدت عنه في ذعر وقالت..

- أيها المجنون.. ماذا تفعل؟

ضحك مرةً أخرى وقال...

- حبيبتي.. نحن هنا في لندن.. ولسنا في شوارع أم درمان!!

- لا تكلمني بهذه الطريقة.. أرجوك.

- حاضر.. فقط لا تغضبي.. انني أدعوك بمنتهى الجدية لفنجان شاي.

- لا...

- لا تضيعي الزمن.. يكفي ما ضاع من أعمارنا.. فقط نصف ساعة من الزمان نجلس فيها سوياً.. في مكان هادئ.. أعدك انني سأكون مؤدباً جداً في حديثي معك.

- كلا.. لا أستطيع .. سوف أعود إلى الفندق.

وقف أمامها في حيرة .. ثم تنهد في حزن وقال..

- تظنين انني أتعمد جلب المتاعب لك؟! هكذا أنت دائماً تفقدينني الثقة بنفسي.. تشككين بإنسانيتي.. تجعلينني أحس بأنني صعلوك يستهين بكل القيم... و..

- أرجوك لا تكمل. أنا آسفة جداً ياسيدي. أنت شخصية قومية لها وزنها في مجتمعنا الثقافي والسياسي إنني فخورة بعواطفك نحوي.. لكنني أخاف من جرأة اندفاعك نحوي... أنت تعلم ظروفي..

- أنا فاهم.. فاهم جداً ياسيدتي.

- انت خبرت الحياة وجربتها كثيراً ولاشك انك تحب مائة إمرأة أخرى غيري بنفس القدر.

- أريد أن أقول لك شيئاً.. إنني .. أحببتك.. أكثر من محبتي لكل النساء اللواتي خبرتهن في حياتي.. إنني أفهم الملابسات والظروف الشائكة التي تحيط بنا.. ولكنك تعلمين انني أحبك منذ زمان بعيد.. لا المعتقل ولا الأخريات بأشكالهن وألوانهن المختلفة إستطعن تغيير هذه الحقيقة الأزلية في حياتي.. انا لا أطالبك بالكثير.. إعتبريها حسنة لله واعملي حديث مهاجر محبط يقتله الحنين إلى بلاده التي لا يريد فراقها ولا يطول وصلها. إنني أفتقد كل شيء هناك.. كل شيء .. حتى وشوشات الريح المثيرة للأتربة. آه.. ما أجمل ذلك الغبار.. لكم أفتقده وافتقد أهلي وأحبابي.. امنحيني نصف ساعة من الزمان فقط...

- سأمنحك ساعة كاملة.. هذه ضريبة وطنية لابد منها.

- أذن دعينا نذهب الى مجمع «وايتلي» التجاري. هناك مطعم

قائلاً..

- لا.. لا.. المكان هناك مزدحم بالسودانيين الذين قدموا في إجازات.. أنا لا أريد أن يراني أحد بصحبتك.. هل تريدهم أن يحملوني من المطار رأساً إلى المعتقل؟! أنت باق هنا.. ولكنني أعيش هناك...

جلست أمامه في مقهى هادئ... طلبت فنجاناً من الشاي.. وأخذ هو فنجاناً من القهوة التركية قال..

- هل تريدين بعض الفطائر الحلوة؟

كانت تعلم الظروف المادية الصعبة التي يعيشها أمثاله من السياسيين اللاجئين فقالت بسرعة..

- كلا.. اشكرك كثيراً..

ثم اردفت ضاحكة...

- هل تريدني ان أسمن ويطلقني زوجي.؟

قال ضاحكاً:

- أتمنى من كل قلبي أن يفعل ذلك..

- أيها المجنون.. إنني أتعجب منك كيف تتعامل مع السياسة بكل هذه الجدية والغلظة وأنت تحمل هذا الكم الهائل من الجنون الساخر؟

- إن الجنون فنون. لقد قال شبلي إنه ليست هناك راحة للقلب الذي يعمره الحب فقي حالة الوحدة التي نجد أنفسنا فيها رغم كثرة الناس من حولنا فإننا نتجه الى الازهار والعشب والمياه والسماء.. ففي كل حركة من حركات أوراق الربيع وفي كل نسمة هواء يوجد اتصال خفي ورسالة. وهناك طلاقة في لسان الريح ولحن في خرير الجدول والأعشاب البرية على حافتيه تبعث لحناً يمشي في الروح رغبةً في الرقص ويستفز

الدموع من العيون كما الحماس لإنجاز وطني أو كما صوت الحبيب يغني. أليس هذا جنوناً جميلاً؟

- جميل جداً.. بهذه المناسبة هل قرأت رواياتي الأخيرة.. لقد تمت طباعتها بعد هجرتك؟؟

- نعم.. قرأت لك روايتين «عندما يختلس الزمان أحلامنا» والأخرى لا أذكر إسمها.. تتحدث عن الموت الفاجئ، الذي يترصد البطل ويكون موته مباغتاً وفاجعاً رغم انه كان يتوقعه ويتنبأ به.. أيضا وصلتني عن طريق صديق قادم من الخرطوم الكثير من كتاباتك التي أدمنت قراءتها. حين اقرأ كتاباتك أحس أنك تكتبين لي وحدي. حتى صرت أفكر في الذين قرأوها قبلي والذين سوف يقرأونها بعدي وإلى أي درجة تقربك منهم.. وإلى أي درجة يدخلون عالمك الذي أعتبره ملكاً خاصاً لي..

ثم اطلق ضحكته الصافية وهو يدفن فوق المطفأة لفافته العاشرة ويقول:

- ألم أقل لك إن الجنون فنون؟ إن قمة الإبداع في الجنون تكون في معرفة من هو الشخص المناسب الذي تهطل عليه سحب جنونك وتهبه عواصفها.

- أنت تفلسف الجنون.. وتضع له أسساً عقلانية ومنطقية!

صمت لحظات ثم تنهد وهو يتأمل لفائف سحابات الدخان تتحاوم من حولهما في المكان الضيق وقال:

- ما رأي زوجك في كتاباتك؟

- لا يقرأها إلا نادراً وانا غير حريصة على ذلك.. انه لا يقرأ إلا الصحف اليومية وعادة يقفز من فوق الصفحة الأولى مباشرةً إلى

صفحات الرياضة وهو عموماً ليس مغرماً بالأدب بل انه يضيق كثيراً اذا امتدح أحد كتاباتي ويضيق بعلاقاتي بالوسط الثقافي والأدبي.

قال مندهشاً:

– تعنين انه لم يقرأ رواياتك الاخيرة!

– انا واثقة انه لم يقرأها.. واذا اجتهد كثيراً يكون قد قرأ الثلاث صفحات الأولى من كل رواية.

تابع حديثها مهتماً.. دون تعليق مستغرقاً في تأملاته.. مراقباً للسحب الدخانية تلف دوائر حولهما.

– لو كان لي زوج مثلك.. كنت أتيتكم بجائزة نوبل لكنني أحب زوجي ولن أستبدل به مجنوناً مثلك تظهر كل جوائز الآداب العالمية.

تجاوز حديثها الأخير بابتسامة صامتة. نفض رماد سيجارته وهو يقول:

– لماذا لا تجربين كتابة المقال السياسي؟

– لا يا سيدي.. الجهاد السياسي أتركه لكم – جزاكم الله كل خير – نحن حزب الجهاد الإجتماعي الثقافي ولا دخل لنا في السياسة.

ابتسم وهو يطفىء سيجارة أخرى ويضغطها بشدة فوق المطفأة.

نهضت واقفة. تخلصت من التفاف الثوب حول جسدها لتعدله انكشفت استدارة ذراعيها العاريتين وجزءاً كبيراً من صدرها تحت الفستان القصير المفتوح حتى الصدر في شكل مثلث ناقص الأضلاع.. وترنح السلسال الرقيق الذي يحيط جيدها الأتلع وينام فوق رهاء الثقة تأبى الإستقرار وتترجرج في ترق كلما رفعت ساعديها أو أسرعت بخطواتها الموسيقية البطيئة..

كان يتفحصها بعينيه في صمت.. إبتسمت له فقال:

- لا يزال الوقت مبكراً.. هل تذهبين معي في جولة صغيرة بسيارتي أفرجك فيها على معالم لندن؟ ما رأيك.. سآخذك إلى شارع الصحافة او إلى متحف الشمع، ألم تقولي إنك تتمنين رؤية تلك الأمكنة؟

- أنت تعلم أن هذا مستحيل. أنا زوجة ضابط كبير في جيش الحكومة وانت من أكبر المناهضين لنظام الحكم. هل تريد أن تضيف لرصيدك سبباً آخر يبرر قتلهم لك؟

وقف بجانبها يدخن في صمت . جرجرت ساقيها، في هدوء حزين واتجهت بتثاقل نحو الشارع. تبعها.. كان يمشي إلى جانبها في خطوات قصيرة، لكنها ثابتة ومتزنة. كان صمتهما أبلغ من كل حديث كان من الممكن أن يدور بينهما.. وعندما قبض على يدها بقوة، وحنان يريد مساعدتها على قطع الشارع إلى الرصيف المقابل.. لم تنعه ، بل انها شعرت بالدفء يتخلل جوانحها.

«٦»

أزاحت الستائر الرقيقة، ووقفت تتطلع إلى الشارع الهادئ، الذي يقع فيه الفندق، الذي تقيم فيه مع زوجها. كان الجو صحواً. ومنظر الأشجار الداكنة الخضرة المغسولة بالندى الضبابي يبعث في النفس شعوراً بالبهجة.

أخذت تدندن بأغنية سودانية شائعة:

لو.. بإيدي.. كنت طوعت الليالي..

كنت ذللت المحال...

والأماني الثائرة في دنياي..

ما كانت خيال...

غصباً عني وغصباً عنك ..

انت حبيبتي وهويتك..

آه ... آه... لو بإيدي..

قالت لنفسها وهي تقرب وجهها من زجاج النافذة البارد..

- إن رؤية الطبيعة من الخارج فيها تفرد جمالي فيه الطعم واللمس والإستنشاق بكل الحواس ولكن تأملها من الداخل له أيضاً جماله.. جمال التأمل من بعيد تحت حماية الداخل ودفئه وطمأنينته... إن استمتاعنا برؤية العصافير الجميلة من خلال زجاج النافذة يبدو ناقصاً لأننا لانستطيع الإستمتاع بزقزقتها ثم إن لون زجاج الداخل يلوّن إطار الجمال الخارجي ويحرمنا حيادية الرؤية الخصوصية.

كانت الساعة تقترب من الرابعة مساء، عندما رنّ جرس الهاتف، زوجها أخبرها بأنه سيذهب إلى مدينة أخرى وسيعود بعد الساعة السادسة مساء.. وربما يتأخر أكثر من أجل شراء معمل للتحاليل الطبية. ارتفع رنين الهاتف عالياً.

- ألو..

- مساء الخير.. أنتظرك عند ناصية الشارع.. قرب مكتب الهاتف العمومي.

- أهلاً.. محمود!!

- كنت في اجتماعات متواصلة طيلة ليلة أمس. لذي إجازة اليوم، لكنني سأدخل في اجتماع سياسي مغلق غداً في (ردينغ) وسأقضي يومين هناك.. هل أطمع في لقائك.. ومحادثتك!!

- أنا آسفة .. ربما لن استطيع مقابلتك اليوم.. لقد تكررت لقاءاتنا.

- أرجوك.. انا أطمع في أن أشرب كوباً من الشاي معك في مكان عام وأتحدث إليك هل هذا كثير عليّ!!

- ... ...

- أتوسل إليك!!

- أخشى أن يكون هناك من يرصد لقاءاتنا المتكررة، أنت تعلم ان زوجي سيغضب كثيراً إذا علم بذلك رغم تحرره الفكري وثقته المطلقة بتصرفاتي.

- أنا في حاجة الى الحديث معك.. إنني احتاج إلى قدر كبير من الراحة الذهنية وهدوء الأعصاب قبل الدخول الى الإجتماع السياسي غداً.. أرجوك تعالي..

- أي حديث هذا الذي تحتاجني فيه؟! انت تعلم جيداً إنني لا أجيد الحديث في الشؤون السياسية ولا أحبه.

- يا سيدتي الرائعة.. أريد ان استمع إلى موسيقى جميلة وهادئة ما بين إجتماع سياسي عاصف وآخر اتوقع أن يكون شديد الخطورة والأهمية. وأعدك بأنني لن أتحدث في السياسة مطلقاً ولن أنطق بأي كلمة تبدأ بحرف السين اذا كان هذا يرضي سيدتي ويخرجها من الخيمة للقائي.

- آه.. منك... من أين طلعت لي أيها السيد المحتال؟! انني أخاف على نفسي من حيل السياسيين ومكرهم.

- أرجوك .. لاتحرميني من نعمة الحديث معك وأنا على مثل هذا الحال من الضنك والإحباط.

- إنني حقاً لا أدري كيف أتصرف معك!! حسناً سأحضر للقائك، سأعتبرها خدمة للوطن. عسى أن تهدأ أعصابك وتشتغل سياسة تمام وتكون نتيجة هذه الاجتماعات المتواصلة خيراً للبلد ووفقاً للعرب الأهلية اللعينة.

- الله.. ما أسعدني بوظيفتك هذه.. تعالي بسرعة.. لا أستطيع الصبر.. انهدّ حيلي وأنا أنتظرك كل هذه السنوات دون أمل في اللقاء.

- إنتظرني عند ناصية الشارع ولا تقل كلمة واحدة زيادة وإلا غيرت رأيي وامتنعت من الحضور!

وضعت سماعة الهاتف وصوت ضحكته يجلجل ويهز أوتار قلبها ومسامعها.

ارتدت ملابسها بتمهل. نظرت إلى وجهها في المرآة. جميلاً كان وجهها.. ونظيفاً من المساحيق والألوان.

وضعت خطوطاً رقيقة من الكحل على عينيها. ترددت قليلاً ثم حملت حقيبتها الصغيرة ونزلت الدرج الخشبي مسرعةً.

كان واقفاً ينتظرها.. أسرع إليها عندما رآها.. تعلقت نظراته بعينيها ومدّ يده إليها مصافحاً.. صافحته بسرعة وكأنها تخشى لمس أصابعه، وقالت:

- هيا بنا من هنا المكان.

قال متردداً..

- هل تذهبين معي في سيارتي؟

قالت ضاحكة..

- سيارتك!! لا يا سيدي أنا لا آمن على نفسي في سيارتك من يضمن لي أن تنمي سنطنان الأرض ثانية!!

- هل يعني هذا انك تخشين من وجود متفجرات فيها؟

- متفجرات.. قنبلة.. تختطفني!! هو شعور بعدم الإطمئنان وخلاص..

ضحكا كثيراً وهما يقطعان الشارع.

- هل تعرفين.. منذ زمن طويل لم أخرج مع سيدة ماشياً.. ولم أضحك هكذا.

- أنا أيضاً لا أحب المشي في الشوارع المزدحمة.

- يوجد مقهى صغير وهادئ، قريب من هنا.. إذا كان يروقك الجلوس والحديث معي.

قالت في مشاكسة:

- والله إنه لا يروقني أبداً ولكن ماذا أفعل معك؟! "مكره أخاك.. لابطل!!"

اختار طاولة بعيدة من المدخل تبدو منعزلة بعض الشيء.. وضعت حقيبتها أمامه على الطاولة. أحكمت وضع ثوبها على عنقها وجسدها واعتدلت في جلستها. وعندما انحنت بجسمها ومالت لتأخذ حقيبتها من أمامه.. وضع يده على الحقيبة يستبقيها . سحبت يدها من تحت يده بسرعة لكنها ابتسمت. تنهد في راحة وعيناه تتابعان تفاصيل جسدها الريان في شوق ولهفة وبدا الإنفعال واضحاً على تعبيرات وجهه.. لم يحاول مداراته. أغرق عينيه في تفاصيل جسدها الرائعة، ثم قال:

- ياإلهنا الجسد الجميل الذي يحرقني بنيران الجرس. كنت أعتقد ان الفكر الجميل عند النساء يتمحور في أجساد أشبه بأجساد الرجال!!

شعرت بالإرتباك والخجل لحديثه الجرئ، ونظراته المقتحمة.

- لا تنظر اليّ هكذا.. كأنك ترى امرأة للمرة الأولى في حياتك!

- إنني أنظر ما طال إليه الشوق، نفساً روحاً، فكراً، خلاقاً، جسداً في قالب انثى.. وأحلامي العطشى تتطلع إليك في حسرة..

- تأتي الحسرة.. حين نتطلع إلى شيء مفقود يمنعه الواقع.. ويحظره العقل.

- إن بعداً شاسعاً يفصل ما بين الرغبة والعقل وأحلام اليقظة.. نتمنى شيئاً والواقع شيء، وبمقدور الواحد منا شيء آخر ولكن.. أرجوك.. دعينا من هذا الجدل البيزنطي وامنحيني فرصة متعة الجلوس معك في أحد المطاعم الراقية.. أو لنذهب في نزهة هادئة بالسيارة.. سوف أريك معالم مدينة لندن الثقافية. مارأيك!!

- إنني أرغب كثيراً في مثل هذه النزهة معك.. لكنني للأسف لن أستطيع فعلها..فلا تحزنني بحديثك كن واقعياً ارجوك... ودعك من هذه الاحلام.

- إنني أمامك أفقد بوصلة إتجاهاتي وإحساسي بالواقع، ولا أدري من أمري شيئاً.. انك تطلعين من زوايا تاريخي وتطلين أبداً ذات بريق في الحضور وفي الغياب.. خيالك وعبق الحلم يزاولان لي عند كل منعطف وزاوية.. وأراك في كل جميل من الناس والأشياء.. إن الواقع يأبى ويحول دون لقاء للوصل يروي الشوق ويرد الروح إلى جسد تواق لايرضى إلا بالكل.

- لولا ان العقل المدرك يمنعنا من الإستغراق في الأحلام المجنونة ويقودنا إلى كبح مشاعرنا ومصالحة الواقع لانفلت زمام المجتمع وضاع رباط العلاقات الإنسانية والأخلاقية في تلك الأشياء التي نرغبها.

- إن نفسي في تلك الحلم المرغوب تدور .. يجذبها نحوك سحر.. طاغ.. فلاأب ليس منه فكاك. إنني يا سيدتي أحبك واحترمك.. وأشتهيك . أريد الإلتحام بمحاورك كلها في كل زمان ومكان.. حتى لو

كان عقب ذلك انفجاري وتشبثي إلى شظايا.. أنت تدركين الضغوط النفسية والسياسية الهائلة التي تمر بها نحن الذين وضعنا أنفسنا في فوهة المدفع لمواجهة السلطة العسكرية.. إننا نخرج كل يوم من بيوتنا ونحن لاندري هل سنعود إليها مرة أخرى أم لا.. هل تصدقين إنني في كل مرة أخرج فيها من منزلي أنظر إلى عيون أطفالي وملامحهم في لهفة وداع حزينة ويراودني الشعور بأنني ربما لن أراهم مرة ثانية!!

- أعلم انك مقدام لاتهاب الموت..هل تخشى الإختطاف مثلاً؟!!

- الموت هو سبيل الأولين والأخرين.. ولكن .. انظري كيف مات غسان كنفاني مثلاً.. قنبلة موقوتة تدار «بالريموت كنترول» تنفجر في سيارته فتتناثر الحياة الصاخبة في لحظات وتتحول من الحلم الجميل إلى شظايا من الموت الرمادي الغادر البارد.. وغيره كثيرون.. أمثال كمال ناصر.. وحسن علي أبو سلامة.

- انت في لندن في قلب العاصمة البريطانية. بكل إحتياطاتها الأمنية.. وتخاف..؟!!

- هل نسيت كيف قتل الرسام ناجي العلي؟ طلقات طائشة داهمته فجأة.. فقتلت موعداً جميلاً ملوناً مع الحياة ولم يكتشف الجناة الحقيقيون حتى الآن.. إنني لا أخاف الموت في سبيل مبادئي، التي آمنت بها ومستعد ان أبذل حياتي رخيصة في سبيل بلادي.. ولكني أفضل مواجهة اعدائي وجهاً لوجه بالقلم أو بالسلاح وأحتقر أساليب الجبناء الذين يهاجموا الشرفاء الأحرار من خلف ظهورهم

- يا أخي.. تفاءل خيراً.. ولاتجعلهم يقتلونك الآن نحن ننتظر منك الكثير.. من سيقلب الحكومة غيرك..؟!! هؤلاء العسكر المتهورون لن

يطردهم غير متهور مجنون مثلك.. لا تفعلها ولموت أرجوك حتى تتغير الأحوال..

- قريبا جداً سيحدث ذلك.. سوف يذهبون إلى غير رجعة.. سترينا

- انعل هذا.. ولك عندي البشارة التي تحبها..

ثم ضحكت في تخابث وهي تقول:

- لو قلبت الحكومة وتغير نظام الحكم سوف أعطيك شيئاً جميلاً، تحبه أنت كثيراً وتتمناه.

التقط ضحكتها وتلميحها التخابث وقال.. في لهفة..

- والله ؟ هل تقسمين على هذا ؟ هل تعدينني بذلك حقا ؟؟

إختطفت حقيبتها من أمامه وهي تقول وجسدها كله يهتز وقد أصابتها نوبة هستيرية من الضحك لم تستطع التحكم فيها.

- أيها المجنون، كأنك ستختطف الطائرة اليوم، وتذهب إلى الخرطوم، وتقلب نظام الحكم في صبحة الغد.. عموماً هذا ليس بمستبعد.. ألم يقل أحد الظرفاء، ان كل من يصحو مبكراً قبل الآخرين في السودان يستطيع قلب نظام الحكم!

خرجت في خطوات مسرعة نحو الشارع، تبعها وهو يضحك، كان يمشي بجانبها وهو يثرثر، قال نكتة سياسية شائعة ثم انفجر ضاحكاً.

ومضت على خاطرها فجأة.. فكرة أزعجتها.. ماذا لو انطلقت عليهما الآن بعض الرصاصات من مكان خفي.. إنها لاتخشى الموت، ولكنها حتماً تخاف الفضيحة.. تخيلت جموع الصحفيين ووكالات الأنباء، وصورتها تتصدر أخبار التلفزيون والصفحات الأولى من صحف الغد.. تخيلت صورتها وهي ترقد إلى جانبه.. مضرجين بدمائهما.. تصورت

بخيالها كيف تكون ردود الفعل.. وسط جمهور القياء سيقول البعض بأنها عشيقته وانهما كانا في مكان ما.. وربما كان زوجها هو القاتل. الذين إلى جانب الحكومة سيضعون زوجها في السجن وربما شكلوا له محاكمة عسكرية بتهمة الخيانة العظمى وسيقال عنه أن زوجته تقوم بإفشاء أسرار الدولة لزعماء المعارضة.. أما جماعة المعارضة فسيقولون بأنها كانت الفخ الذي نصبته قوى الأمبريالية العسكرية لإصطياده.

ابتسمت لنفسها ولخواطرها المشوشة. وتطلعت إليه... كان يمشي صامتاً لم ينبس ببنت شفة.. ماذا يريد منها هذا الرجل؟ حواجز كثيرة تحول بينه وبينها وتصنع سياجاً منيعاً بينهما لن يستطيع تجاوزه. كان بخبرته الطويلة في عالم النساء لا يتصور أبداً ان هناك امرأة يمكن ان تتمنع عليه كما فعلت.. فهو برغم حضوره الحاد والمكثف في المجالات السياسية والثقافية إلا إنه عرف بجرأته الشديدة في ملاحقة النساء.. ولكنها كانت شيئاً آخر زلزل ثقته بنفسه. كانت قوة شخصيتها، واعتزازها بكيان أسرتها الإجتماعي يثيران غيظه. قال لها ذات مرة:

- يا لغروركم... تعتقدون أنكم فوق الآخرين وتمنحون انفسكم حق السيادة.

ردت عليه في مشاكسة..

- إن الله خلق السادة.. كما خلق العبيد...

قال في لهجة مسرحية عابثة.

- إذن.. هل تقبلني سيدتي عبداً مطيعاً يلازمها كل يوم منذ مغرب الشمس حتى مطلعها؟

تنبهت إلى أنه يقودها إلى مكان غير المكان الذي وضع فيه سيارته

وتنبهت أيضا إلى أن مواعيد حضور زوجها قد فاتت وربما كان ينتظرها الآن في قلق.. وقد يسمعها كلمات توبيخ قاسية.. لكنها كانت في حالة شعورية جديدة عليها، كأنها سحابة مثقلة قيد الإنفجار لا تطال الأرض منها غير ظل بعيد.. تهيم في فضاءات رحبة... لا تدرى هل تسقط غيثها على الأرض أم تظل هكذا.

عندما وصلا الى بوابة «هايد بارك» تأخر في الدخول متردداً فتقدمته، لدهشتها الشديدة من نفسها، في غير وجل... أو تردد.

كان حفيف الأوراق الجافة يتكسر في وهن تحت تثاقل خطواتهما.. مرّق سنجاب صغير، وقفز وسط الحشائش الخضراء، وتبعه آخر. أمسك بيدها . شبكت أصابعها الرطبة بأصابعه القوية، فضغط على كفها وأحكم قبضته عليها بحنان.

جلسا على أحد المقاعد المقابلة للبحيرة. وقد تجلّت أسراب الطيور المائية الجميلة فوق صفحتها كحلم جميل يصعب الإمساك به..

كانت الشمس قد بدأت في التقاط خيوط أشعتها الحمراء، من فوق وجه الأرض وتبدت روعة الغسق على سطح البحيرة.. جمالاً اسطورياً يجلُّ عن الوصف.

عندما التقى بها أول مرة في مكتب أخيها عادل صديقه القديم قال مداعباً:

- لم أكن أظن أن لعادل أختاً مثلك..

وحين رفعت إليه عينيها الجميلتين المفرقتين في الكحل الأسود.. ارتبك وتشاغل ببعض الأوراق في يده وقد تذكر صداقته القوية لأخيها.. ولم يكمل.. فاجأته ضحكتها الصافية وقولها الساخر:

- مثل ماذا؟
كانت إمرأة لها غرورها الخاص وحضورها القوي. ودائماً شديدة الإعتداد بمواهبها العقلية. كانت من ذلك النوع السهل الممتنع الذي يستثير خيال الرجل ويقلقه.. رغم علمه باستحالة المنال.
- لماذا لا تكمل حديثك. أنت عادل مثل ماذا؟
- مثل القمر..
- أنا ارفض تشبيهي بالقمر.. القمر صورة جمالية باهتة لا حرارة فيها.
- إذن مثل الشمس.
ابتسمت في هدوء شأن امرأة زاهدة في سماع كلمات الإطراء المغسولة بطعم السكر.
لم يرزق والدها التاجر الثري بغيرها هي وأخيها عادل فعاشت في فيض من الحنان والتدليل.. ما تمنت شيئاً أو طلبته إلا وكان أمامها.
وجاء زوجها عاصم من أسرة واسعة الثراء وهو طبيب ناجح صعد درجات الترقي العسكري في سرعة حتى وصل إلى رتبة «لواء طبيب» وكان يحبها كثيراً بالرغم من انها لم تنجب منه.
انتبهت فجأة الى انه يحيط كتفيها بذراعه. ابتعدت عنه بهدوء.. نظر اليها مبتسماً..
- لكم أحببتك.. دائما كنت أحمل صورتك في قلبي وفي ذاكرتي. ثم احتلّ خيالك عقلي وكياني بعد قراءاتي لكتاباتك.. وخصوصاً الروايات. لقد سعدت بها حقاً هذا ليس من قبيل المجاملة فلست ممن يكتبون لإرضاء الآخرين مهما قويت علاقتي بهم.. إن أكثر ما يعجبني

في كتاباتك هذه العفوية الصادقة وهذا الإنسياب.. كأنك تتحدثين إلى قارئك وهذه ملكة تضيع عند كثير من الكتاب حين يعمدون إلى الصنعة.. ويتكلفون التجويد.. لقد وجدت في تفاصيل قصصك ورواياتك صوراً حقيقية تقابلنا في حياتنا اليومية يحس الواحد منا انه يعرف بطلاتها وأبطالها.

اقتربت منه قليلاً وهي تقول:

- إن هذا أجمل حديث سمعته عن كتاباتي وسأكون سعيدة جداً ان كان هذا هو رأيك الحقيقي من غير أن يكون لعواطفك تأثير عليه.

اقترب منها أكثر.. انحني عليها، أغمضت عينيها. قبلها ببطء على جبينها، واستنشق أنفاسها في عمق. ثم اعتدل قائلاً:

- إنني لا أجاملك ابداً بهذا الحديث. إنني أفصل تماماً بين النص الأدبي وكاتبه. أنا لا أتملقك ولا أستجدي عواطفك ثقي من هذا تماماً. ياسيدتي.. أنا حقاً سعيد بعلاقتي بك بل وبها فخور وأتمنى صادقاً أن تزداد هذه الصلة متانة وقرباً وأن تتصل فنحن في هذا الشتات القاسي أحوج ما تكون لنا يربطنا بأحبابنا وأوطاننا.. ولا أخفيك سروري بوجودك الرائق والمدهش في حياتنا الأدبية التي ظلت تعاني من الجفاف ومن غياب الجنس اللطيف وذلك لأن معظم اللاتي يلجن هذه الساحة «يسترجلن» ويسلبن المرأة أعز ما تملك أنوثتها.

ضحكت لعباراته الأخيرة ولم تعلق على حديثه. فقال..

- انا واثق من أن كثيرين يتمثلون أبطالك ويتمنون أن يكونوا مشتين لبعض أعمالك. يقول اوسكار وايلد. ان العمل الناجح هو الذي يجد القارئ نفسه في شخوصه ويتمثل أبطاله ويتمنى أي كاتب أن

يكون منشأه. انك تعرضين فكرك ورأيك على قرائك بكثير من الثقة والإقناع. تتخللين وجدانهم كالماء العذب الذي يروي الوجدان والشعور.

كانت لا تزال صامتة لا تقول شيئاً. أخذ ينظر الى الطيور التي تسبح في روعة مدهشة وجمال على سطح الماء.. مكونة لوحات تشكيلية رائعة. حاول أن يتأمل الجمال من حوله في صمت. كما تفعل لكن أعماقه المشتعلة وجداً كانت تأبى عليه السكوت. بحث عن كفها.. تنهد وهو يقول:

- آه... ما أجمل الحياة. عندما ترق العواطف، ويكون إحساسنا بالسعادة مشوباً في لهفة مجنونة، غير متصلة تجاه من نحب.. يشف وجودنا، ونهيم كفراشات جميلة تضيف بعداً أجمل للوجود الكوني، وتقف قواميس اللغة حائرة تجاه همهمات القلب، وصهيل الروح، وأنين العقل المتميز، ونحن نتدفع حسياً وروحياً في وجود بعضنا البعض.

بدأت روحها تئن إزاء هذا الفيض العاطفي الذي أغرقها في بحوره دونما استعداد منها.

لاحظ اضطرابها. أودع باطن كفها قبلة حارة حملها كل عواطفه التي يحاول عبثاً السيطرة عليها بينما أعماقه تعتمل من الداخل.

وضعت رأسها على حافة المقعد .. أغمضت عينيها ثم اطلقت آهة طويلة. اقترب منها أكثر. ضمها إليه محاولاً تقبيلها ولكنها ردته بحزم. أبعدته بيدها بعنف وهي تقول في صوت متهدج:

- أرجوك يكفي هذا.. لا تجعلني أندم على حضوري معك.

كان يتأملها في وله مجنون وأعماقه تهدر بالشوق.

نظر إليها. كان في عينيها نظرات غاضبة وحزينة قال محرجاً في أسى

والدمع يكاد يطفر من عينيه..

- أنا آسف جداً. أرجوك أن تعذريني لم أستطع أن أقاوم عواطفي نحوك بعد كل هذا الغياب الطويل، والحضور الموجع.. إنني لا أدري هل سأراك مرة أخرى أم لا؟

- إنك تؤلمني بهذا الحديث. دعنا نذهب أرجوك.

- إنني فقط، أود أن تعلمي يا سيدتي، انني أحمل لك من العاطفة الجياشة، ما لم أحمله لسواك من قبل.. ولن أحمله لسواك من بعد. وسواء أحببتني، أم لا.. فإني مقيمٌ على حبك كما كنت منذ معرفتي بك. وأتترس بعواطفي نحوك في خندق داخلي أحمله في أعمق أعماقي... يعيد لي التوازن النفسي ويشدني إلى عوالم جميلة، مدهشة ورقيقة تختلف كثيراً عن عوالم الكفاح المسلح الذي أجد نفسي جزءاً هاماً من مكوناته. لقد صور حالنا الشهيد كمال ناصر في قوله:

إلى رفاق الموت في مواكب الحياة،

إلى الذين عانقوا المنون للنجاة،

وانتصروا على الردى اللئيم في سماه،

فكان كل واحد، في موته إله.

بقيت على صمتها الحزين. نهض واقفاً. أمسك بيدها يساعدها على النهوض. تأملها للحظات.. أطلق ضحكة، قصيرة، متوجعة وهو يقول متصنعاً المرح:

- هيا بنا . سأوصلك للفندق. قد حان موعد حضور زوجك!

عند وصولهما إلى مشارف الطريق الذي يقود إلى الفندق تنبهت لأول مرة إلى حلول الظلام. توقفت وقالت:

- يستحسن أن تذهب الآن

تمنت لو تعانقه مودعة..

لكنها مدّت كفها وهي تقول :

- مع السلامة.

- بل قولي .. إلى لقاء..

رفع كفها إلى فمه بسرعة.. طبع عليها قبلةً رقيقة، ثم انثنى راجعاً دون أن ينظر خلفه. تابعته بنظراتها.. وقالت لنفسها.. ربما كان يمسح دمعةً تخاذلت.. كره أن تراها لو نظر إليها مرة أخرى بالرغم من توقه الى ذلك.

«٧»

خرجت سيدة مسرعة من منزلها وهي تحمل جهاز الراديو الترانزيستور أزاحت بيدها أغصان أشجار الحناء التي تكوّن سياجاً بين المنازل الحكومية وارتفع صوتها منادياً:

- عواطف.. عواطف هل عرفت بالأخبار؟

لفّت عواطف بدنها بالثوب الشجر الملقى بإهمال فوق السرير بسرعة وخرجت بأنفاس مبهورة، وهي تحمل جهاز الراديو.

ضحكت سيدة وهي تقول:

- لا داعي للراديو أنا أحمل واحداً. تعالي نقف أمام الباب..

وجاءت رباب ورجاء وإقبال.. وقفن تحت المباني الإسمنتية، العالية، المسوّرة بأشجار الحناء المصطفة بغزارة.

وضعت سيدة الراديو الذي تحمله على الحائط القصير الذي يسند البوابة بينما بقيت عواطف تلصق الراديو الصغير الذي تحمله إلى صدرها الضخم في قوة.

موسيقى عسكرية تدق في عنف وتتلقفها قلوبهن في عنف أشد..
سكن الشارع تماماً. الرجال جميعهم يعملون بالمصنع القريب والأطفال
بالمدارس وليس من صوت غير صوت المذياع.

- إنه انقلاب عسكري.. لقد أطاحوا بالرئيس!

- صه .. دعينا نسمع!

صوت المذيع.. «جاءتنا برقية أخرى.. الرائد محمد عثمان علي.. الى
الرائد محجوب صالح والقوة المنتصرة.. نهنئكم بانتصاركم.. الشعب كله
وراءكم.. أضربوا بيد من حديد».

تعود الموسيقى العسكرية.. تدق قلوبهن في عنف وهن يتحصن في
طرف الشارع في توجس.

صوت المذيع يعلن.. إعادة البيان الأول للثورة..

«أيها المواطنون الأحرار.. أيها المواطنون الأحرار...»

تتوالى بقية كلمات البيان قوية حارة.. تتوهج بالوعود والأمل.

لا تتمالك عواطف مشاعرها فتنفعل بشدة وتبدأ دموعها بالتدفق وهي
ترتجف في هستريا وقد تذكرت ابن عمتها - الرائد - الذي أعدم قبل
سنوات إثر انقلاب عسكري فاشل.

أطلقت سيدة زغرودة عالية.

وحدها رجاء بقيت صامتة. تجمدت مشاعرها فلم تنطق بكلمة واحدة
خلال المدة الطويلة التي وقفن فيها تحت ظلال المنازل الأسمنتية الفاخرة
المسيّجة بأشجار الحناء.. والتي تمثل سكناً لكبار الموظفين.

زوجها كان هو العسكري الوحيد بين أزواجهن.

لم ينتبهن لهذه المعلومة خلال انفعالهن بالحدث. قطعت صافرة المصنع

التي تطلق عادةً عند تغيير ورديات العمل ثرثرتهن. قالت سيدة وهي تخبط على صدرها بطريقة مفاجئة.

- سجمي !! الساعة إطناشر.. وأنا لسه ما خلصت من عمل الأكل!!

- وأنا عندي سمك منتظر التحمير!!

قالتها رجاء بعصبية وهي تسرع من بينهن وكأنها تتخلص من مأزق صعب وضعتها فيه الأحداث الأخيرة.. وكان زوجها، بعد حضوره من لندن وإنجازه مهمة شراء المعدات الطبية بنجاح تام قد تم نقله من العاصمة الخرطوم وعيّن قائداً للحامية العسكرية في منطقة «هشامة».

اجتمعت النسوة في المساء في منزل رجاء بعد ذهاب أزواجهن إلى النادي الذي يجتمع فيه كافة الموظفين بمصانع المدينة مع موظفي الحكومة من الأطباء والمهندسين الذين يشكلون عدداً كبيراً من النازحين من مدن السودان المختلفة.

احتفلت بهن رجاء وابتهجت، وقدمت الشاي بالحليب وأصناف من الكعك والحلوى حرصت على تقديمها في أجمل أواني الكريستال التي تمتلكها. كانت تبدو فرحة مستبشرة فقد أخبرها زوجها ان قائد الانقلاب هو زميله ورفيق سلاحه. وانه قد أرسل إليه برقية يهنئه فيها بالإنتصار على القيادة الفاسدة. كانت تحكي بكثير من الفخر والمباهاة عن علاقة زوجها بالقائد الجديد وعلى وجهها ابتسامة متفائلة.. فلربما يعين زوجها في إحدى الوزارات الجديدة. لقد كرهت منذ البداية وجودها في هذه المدينة الصغيرة رغم الوضع الإجتماعي المميز لزوجها، واعتبرتها منفى فرض عليها رغماً عنها. كانت تضيق بغرف المنزل الكثيرة على رحابتها وتنظر بتحسر الى الحديقة الواسعة، الوارفة التي تفتقد ضحكات

الأطفال وشغبهم وقد حرمتها الطبيعة من الإنجاب.. كم تمنت لو أن لها طفلة واحدة تنصب لها أرجوحة جميلة تحت ظلال شجرة المانجو الضخمة القائمة في منتصف الحديقة كما هو موجود في كل بيوت جاراتها. تنظر بحسرة الى الثمار الحلوة المتساقطة من الشجرة الضخمة وتتوه نظراتها بين أشجار الجوافة وهي ترمق الثمرات وقد انبثقت حمرتها وسط لونها الأصفر الفاقع نتيجة لنقرات الطيور عليها.

كانت نعيمتها بحجم الدنيا كلها عندما زارتها عواطف ذات يوم ونظرت إلى الأشجار في حسرة وهي تقول:

- ثمار المانجو والجوافة عندنا، لا تنضج ابداً، لأن أطفالنا الأشقياء، يقطفونها قبل أوانها.

ضحكت - يومذاك - وتظاهرت بعدم الإهتمام، ولكن لم تكد عواطف تخطو أول خطواتها خارج المنزل حين ارتفع صوتها في عصبية منادياً أحد العمال.

- آدم .. آدم.. تعال بسرعة، واقطع كل الثمار الموجودة بهذه الأشجار.

- كلها.. يا سيدتي؟

- نعم كلها.. لا أريد شيئاً معلقاً على الأشجار غير الغصون والأوراق.

قال في حيرة...

- لكن بعضها .. لازال نيئاً!!

- قلت لك اقطعها كلها.. خذها إلى منزلك.. لا أريدها أمامي.

واندفعت في سرعة إلى داخل الفراندة المحيطة بالمنزل السجنة بسلك

الحلية خوفاً من البعوض الناقل للملاريا.

جلست على الكرسي الأنيق الموضوع قرب طاولة الطعام.. عبثت قليلاً بالزهور المنسقة بعناية في إناء زجاجي أمامها. تأملت المفرش الجميل، وغطاء البلاستيك الشفاف. تأملت طلاء الأظافر الجميل المرسوم بعناية فائقة فوق أظافرها. أمدت ذراعيها على طاولة الطعام ثم اتكأت عليها وأخذت تنتحب في هدوء.

بعد خروج النسوة من عندها أخبرها زوجها بأنه سيذهب إلى اجتماع سري في قيادة الجيش ربما استمر حتى الساعات الأولى من الصباح، استدعى الشرطي المناوب وأمره بالوقوف للحراسة وعدم التحرك من المنزل حتى عودته.

قال زوجها وهو خارج وقد لاحظ ارتباكها.

- هل انت خائفة؟!

- كلا .. أنا فقط متعبة.. أريد ان أنام.

أغلقت الباب من خلفه. سمعت حديثه مع الشرطي المكلف بالحراسة. دوى صوت هدير سيارته العسكرية. ثم أعقب ذلك سكون عميق يتخلله صوت خطوات الشرطي المنتظمة أمام باب الحلية التي تحيط بالغرف الداخلية للمنزل.

لأول مرة تخلو الى نفسها في ذلك اليوم.

كانت تشعر بوجود محمود مكثفاً طوال الوقت. كان طيفه يحوم حولها وسط الضجيج والمارشات العسكرية والهتافات ووسط زحمة الحضور. عندما كانت تستمع للبيان العسكري مع جاراتها خيل إليها ان صوته سينبثق متحدثاً حال توقف الموسيقى العسكرية. احتوتها الذكرى في

عنف وتحول سكونها إلى نوبة بكاء، ثم تحول بكاؤها إلى نشيج هستيري عنيف.

جرجرت قدميها وألقت بنفسها فوق السرير الوثير الكبير البارد.. وطيف محمود يطارد خيالها في إلحاح.

أغمضت عينيها في محاولة لإمساك الدموع وحبسها، وجاءها صوته .. متوددا حنونا دافئا..

- لماذا تبكين .. حبيبتي؟! هذا هو اليوم الذي كنا نحلم به جميعاً.

وجاءها صوته ضاحكاً وعابثاً.

- يا حبيبتي القاسية هل هذا هو الوعد الذي بيننا !! أين البشارة أيتها الماكرة!!

وجاءها صوته في شوقه متهدجاً:

- يا مجنانية.. أشتاق إليك كثيراً.. أشتاق إلى ابتسامتك وقسوتك في البرق.. أيتها المتعجرفة...!!

وجاء صوتها.. مترجماً. يختلج بعذاب حسرات الفقدان والموت الباغت..

- أواه .. أين أنت يا محمود.. لماذا هذا الرحيل المبكر الفاجع... لا أستطيع أن أصدق إنني لن أسمع صوتك مرة أخرى.. لقد ماتت كل الرؤى الجميلة في داخلي يوم موتك يا محمود .. يا .. حبيبي.. ياحبيبي!! ها أنذا أناديك بالنداء الحبيب إليك والذي كنت تستحلفني وتتحايل بشتى الوسائل لسماعه مني. استعصى عليّ نطق هذه الكلمة أمامك وأنا زوجة لرجل آخر.. هل أنا نادمة الآن على ذلك.. وما يفيد الندم؟!

كان تزوجها فوق احتمالها.. صمدت كثيراً وقاومت عواطفها وانفعالاتها لكن جدران وعيها الداخلي سقطت كلها في ذلك المساء وكان انهيارها مريعاً..

وفي صباح اليوم الثاني نقلت إلى المستشفى العكسري وهي في حالة ذهول تام ثم تمّ نقلها إلى مستشفى السلاح الطبي بالخرطوم.. ذات المستشفى الذي كان زوجها يشتري له المعدات من لندن حين تم لقاؤها الفاجيء بمحمود.

عندما فتّحت عينيها كان عادل يجلس في كرسي مقابل لسريرها في المستشفى. ابتسم لها . قام واقفاً وانحنى يريد تقبيل رأسها وهو يضحك قائلاً..

- حمداً لله على سلامتك.

حاولت أن تنهض لكنها تخاذلت. شعرت بجسدها ثقيلاً وبالوهن في عظامها. أسرع اليها عادل يساعدها.

- والدتك كادت تجن عندما سمعت خبر نقلك إلى المستشفى.. أما أنا فقد جننت حقاً. هي أخت وحيدة خرجت بها من الدنيا ولن أتركها تذهب بعيداً عني مرة ثانية. لابد أن عيناً أصابتك في ذلك المنفى الأفيش.

كان أخوها عادل صديقاً حميماً لها. كانا قريبين في العمر والطباع والمزاج. وكان يحزنها كثيراً أنه لم يتزوج وعندما تعاتبه على ذلك كان يقول:

- لن أتزوج إلا من بنت يكون لها مثل جمالك وذكائك.. لا أتصور نفسي زوجاً لامرأة غبية أو جاهلة أو لا تحسن التصرف مهما كان جمالها.

– حواء والدة..

– .. لكنها والدة مصائب.. لا أظنك تريدينني أن أربط نفسي بكارثة تظل تثقل على نفسي طوال سنوات عمري.

قالت لعادل بعد أن مسحت دموعهاالتي غلبتها..

– أريد أن أري أمي.. أشتاق إليها كثيراً..

– سوف تذهبين معي الآن.. البلد في حالة فوضى شاملة بعد الإنقلاب ولن أكون مطمئناً لوجودك داخل المستشفى العسكري. أخذت إذناً من الطبيب أمس وكنت فقط انتظرك حتى تصحي...

– أمس..؟! كم يوماً بقيت هنا؟

– هذا هو اليوم الرابع.. طوال هذه الفترة كنت نائمة تحت مفعول المهدئات. ماذا اصابك؟ طول عمرك قوية وباردة لا يثيرك شيء .. ما الذي أثار انفعالك لهذه الدرجة؟!

. ماذا قال الطبيب؟

– قال انك تعانين من إرهاق عصبي وهبوط حاد في ضغط الدم وقال انك ربما تعرضت لإنفعال نفسي.. عنيف.

سكت قليلاً ونظر إليها في قلق..

– هل الأمور بينك وبين عاصم زوجك على ما يرام؟! انه يتصل بالهاتف يومياً للإطمئنان عليك.

– اطمئن الأمور بيني وبين زوجي عاصم رحلة عسل دائمة إنها فقط الظروف العامة التي تمر بها البلاد.

قال في سخرية عابثة..

– يا سلام.. اخيراً أصبحت تهتمين بالأمور السياسية.. الله يرحم

صديقنا محمود كان يستغرب كثيراً لتجاهلك المطلق للشؤون السياسية..

حاولت مداراة اضطرابها عند ذكر إسم محمود، أحنت رأسها، ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تقول:

- هيا بنا إلى المنزل أكاد أموت شوقاً إلى والدتي.

كان لقاؤها بوالدتها مؤثراً وشديد الشفقة على نفسها فقد كانت ابنتها الوحيدة وكان تعلقها بها وبأخيها عادل شديداً خصوصاً بعد وفاة والدهما.

المنزل يغص بالزوار الذين يفدون لتحية رجاء، يحملون أمنياتهم لها بالشفاء، وتساؤلاتهم الواضحة أو المختبئة تحت ستار التأدب الإجتماعي عن مصير زوجها عاصم بعد الإنقلاب العسكري الفاشل خصوصاً وأن الكثيرين منهم قد سمعوا البرقية التي أرسلها الى صديقه قائد الانقلاب من الإذاعة وقد ذكر أحد الأقارب أنه سمعها مرتين.. مرة بعد نشرة الأخبار الساعة الثالثة عصراً ومرة في المساء. لكن رجاء، التي كانت تغمض عينيها وتتظاهر بالإعياء، في محاولة للهروب من تساؤلاتهم وفضولهم لم تشف غليلهم لأنها هي نفسها لم تكن تعلم عن سير الأحداث طيلة فترة مرضها في المستشفى.

بعد مضي إسبوع واحد على وجود رجاء، في بيت أسرتها وبفضل رعاية والدتها وتوفير سبل الراحة الجسمانية والنفسية لها وحرصها الشديد على توفير الغذاء اللازم لتقويتها استردت صحتها تماماً وإن كانت تشعر ببعض الوهن في أعضائها.. لكن سعادتها بوجودها مرة أخرى في بيت أسرتها كان يشوبها القلق على زوجها.

كانت الأمسية غائمة، وماطرة، هي تضطجع في سرير حديدي منسوج بحبال البلاستيك الملونة وقد وضعت عليه لحافاً محشواً جيداً بالقطن وفرشت فوقه ملاءة "كانون" زرقاء اللون لها نقوش مثل خلية النحل. أمامها طاولة حديدية واطئة فوقها جهاز راديو صغير وعدة أعداد قديمة من مجلة "إبداع" كانت تحتفظ بها في مكتبتها.

أطلت بنظرها على الشارع الرئيسي وهي لا تزال مضطجعة فوق سريرها. بعض قطرات المطر لا تزال تنثال في خطوط شفافة رهيفة من السماء وتعانق الأرض المتخمة بالبلل. رائحة أزهار الليمون تأتي منعشةً حارة من حديقة المنزل الواسعة. الأمطار مستمرة في الهطول منذ ثلاثة أيام، أمطار رقيقة هادئة تنسكب دون توقف.. ذرات الهواء المثقلة بالبلل ورائحة المطر وزفير الأرض يهيجان في النفس إحساساً دفيئاً بالحنين والشوق. تناولت الرواية التي كانت تقرأها وتابعت القراءة.

دخل عادل إلى البلكونة كان يبدو ساهماً عصبياً جلس بجانبها. ورمق الكتاب الموضوع على الطاولة تناوله، وأخذ يتصفحه في غير اهتمام، ثم قال:

- جزيرة العوض .. رواية.. من هو عمر الحميدي المؤلف؟

- كاتب روائي.. ومسرحي سوداني وهو أيضا فنان تشكيلي.

قال ساهماً :

- لم اقرأ له من قبل. لكن اسمه يبدو مألوفاً على مسامعي.

نهض واقفاً فجأة. خرج في سرعة ثم عاد يحمل مطفأة ضخمة للسجائر منحوتة من الخشب على شكل سلحفاة وفوق ظهرها تحت الدرع السلحفاة إناء من النحاس يستخدم لإطفاء السجائر.

وضع الطفاية فوق الطاولة بعد ان زحزح الجلات قليلاً.. نفض سيجارته في عصبية وقال فجأة وكأنه قرر اخيراً أن ينفض عن نفسه عبئاً ثقيلاً.

- أسمعني..

منذ ثلاثة أيام وعادل يبدو عصبياً ويدخن كثيراً ومنذ الأمس اعتكف بغرفته وتحجج عن عدم الأكل بأن معدته ليست على ما يرام. رفعت إليه عينين معبأتين بالحنان والتساؤل.

- نعم أنا أسمعك.. ولمن أستمع إذا لم يكن لأخي الوحيد الحبيب؟!

زفر في ضيق وقال مهموماً.

- إنها حكاية طويلة .. لكني لا أريد لأحد غيرك أن يعرف بها الآن على الأقل.. وحتى نرى إلى أين تسير الأمور.

كان يبدو جاداً، وحزيناً ، مما لا يتناسب مع شخصيته المرحة الشاغبة دائماً. قال في قلق..

- أين الوالدة؟

- في المطبخ، ذهبت لتغلي لك أوراق المرحل. وهي منهمكة تماماً في عمل شوربة الحمام بالقرفة والمستكة.. ألم تقل لها بالأمس ان عندك مغص ومعدتك غير مستقرة؟!

- الله يسلمها دائما تعبانة معانا.

مرت برهة صمت. كان يمدّ بصره خارجاً عبر سياج البلكونة. كانت المياه تتدفق إلى الشارع عبر المواسير الأرضية في اندفاع هادئ، من داخل المنازل بينما تصب المواسير المعلقة على الأسطح مياه الأمطار في صوت مشروخ حين سقوطها على الارض التي أصبحت مثل إسفنجة

مشربة بالمياه.

قامت من السرير الذي كانت تجلس عليه جرّت كرسياً من البلاستيك اللون وألصقته بالسرير وقالت في مرح:

- هل تحب أن تتمدد على السرير وتحكي مشكلتك كما يفعلون في العيادات النفسية؟

تنهد في أسى. أشعل سيجارة أخرى اجتذب منها نفساً عميقاً. أخذ يُمسّد على شعره بيده في سهوم ثم قال:

- المسألة أكثر جديةً وتعقيداً مما تظنين.. أرجوك اسمعيني دون مقاطعة ولا تحرجيني بالأسئلة أخشى ان توقفت عن حكاية قصتي أن أفقد الشجاعة على روايتها.

نهض. أغلق باب البلكونة المؤدي إلى الصالة الداخلية ثم جلس يحكي. بعد أن بلغ بها القلق وحب الإستطلاع مبلغاً جعل دقات قلبها ترتفع حتى خيل إليها أن صوت وجيبه يطغى على صوت المطر..

«٨»

عادل

وبدأ عادل يحكي وسط سحب دخانية كثيفة تحيط بوجهه وهو يشعل لفافة إثر أخرى.

في أول مرة أسافر فيها إلى "أديس أبابا" في زيارة عمل بشأن مناقصة تجارية كنت مفتوناً بحكايات غامضة ومثيرة عن تلك المدينة المسحورة وأمسياتها الجميلة وفتياتها الشهيرات الفاتنات ولياليها الغارقة في المتعة. تطوع أكثر من صديق بإعطائي عناوين الفنادق والبارات والمطاعم، التي تقوم بتسهيل عمليات توصيل المتعة إلى الزبائن في غرفهم. ومنذ هبوط الطائرة الى أرض المطار بدأت عيناي تبحثان عن الأجساد الشابة في لهفة.. وفي الحقيقة إن عملية "البصبصة" هذه بدأت عندي منذ أن وضعت قدمي في الطائرة وقد أخترت عمداً السفر على الخطوط الجوية الأثيوبية. وعندما جاءتني المضيفة الأسمرية الحسناء، لتساعدني في ربط الحزام، قاومت رغبة عنيفة تلكتني أن أحتضنها

وأعصر جسدها اللدن بين ذراعي.

رمقتني بابتسامة ساحرة ثم انصرفت وعادت تدفع أمامها طاولة مليئة بالمشروبات .. وطلبت بيرة مثلجة.

كانت المرة الأولى في حياتي التي أتذوق فيها مشروباً كحولياً.

كنت في حاجة حقاً إلى ذلك المشروب البارد والظمأ يحرقني من الداخل. عند وصولي إلى الفندق اتصلت بالمدير المسؤول عن الشركة التي حضرت للتعامل معها وذكرت لهم عنواني. وبعد ساعة واحدة من وصولي كان السائق يتصل بي من غرفة استقبال الفندق ويخبرني انه في انتظاري ليأخذني لمقابلة المدير. كان السائق يتحدث الإنجليزية بطلاقة والعربية غاية في الفخامة.

أدهشتني نظافة الشوارع وهضابها الجميلة المظللة بالأشجار الضخمة المترقة الخضرة. كانت المدينة جميلة حقاً في جمالها ذلك الغموض السحري الذي يدفع بالأحاسيس إلى حافة الجنون.. بعض المدن جمالها يدفعك إلى الهدوء والسكون.. وبعض المدن يكون جمالها.. مثيراً ومستفزاً للحواس.

دلفت الى البوابة الضخمة الخضراء اللون في البناية البيضاء الجميلة المحاطة بالأشجار العالية التي تكوّن مبنى الشركة. عند المدخل قابلتني سكرتيرة جميلة ترتدي بنطلوناً من الجينز وبلوزة شبه عارية شعرها ينتصب فوق رأسها مثل شمسية عروسة حلاوة المولد النبوي.

ردت على تحيتي واستفساراتي بصوت رخيم متكسر.. وأشارت الى ممر طويل يقع في نهايته مكتب سكرتيرة المدير.

قالت السكرتيرة الحسناء التي لونها بلون العسل بإنجليزية طلقة.. ان

المدير مشغول وعليّ أن انتظر قليلاً من الزمن.

عندما جلست على الأريكة أمامها لم أرفع عينيّ قط عنها وانا أتأمل تقاطيعها الفاتنة. كانت ترتدي الزيّ الأثيوبي التقليدي الأبيض الخفيف، المطرز بنقوش ملونة، وتضع على كتفيها شالاً خفيفاً أبيض اللون، غير أنها أسقطته قليلاً من أحد كتفيها فبدا جيدها وعظام ترقوتها عند الكتف وكأنهما بحيرة من عسل النحل الصافي.

كانت منهمكة في كتابة بعض الأوراق الموجودة أمامها عندما رنّ جرس التليفون. رفعت السماعة وأخذت تتحدث في صوت رهيف ناعم وكأنه شهيق الحلم.

وعندما رفعت عينيها نحوي أصابني الدوار كانت عيونها جميلة بشكل مذهل وحلّقت بي في غيوم ماطرة.. ممتعة.

أيقظتني ضحكتها وهي تقول...

- يا سيدي.. ألم تسمعني؟ أقول لك ان المدير ينتظرك!

كانت ريتا، تتابعه باهتمام وفضول وإن كانت لم تندهش كثيراً لوجود مغامرة عاطفية عميقة الأثر على أخيها الذي يرفض الزواج باستمرار رغم إلحاحها هي ووالدتها عليه.

قال عادل: أرجو أن تعذريني جرأتي وريتا وقاحتي في الحديث معك. أنت أختي وصديقتي وأقرب الناس إليّ.. إنني أتحدث أمامك وكأنني أتحدث إلى نفسي.

ربتت على كتفه وهي تبتسم في حنان دون أن ترد عليه.

أخذ نفساً طويلاً من سيجارته وقال يحكي بصوت متأثر النبرات:

عندما خرجت من مكتب المدير ذلك اليوم توقفت في مكتب

السكرتيرة الحسناء. مدّت لي يدها مودعةً وهي تبتسم. تطلعت إليها. في وجهها مباشرة. كنت أنظر إليها في جرأة. وربما في وقاحة. وأنا أتملى تقاطيع وجهها. الدقيقة. الفاتنة. وسمرتها العسلية الآسرة. كان شعرها قصيراً. كثيفاً. لا يصل إلى كتفيها. لكن سواده الحالك كان يصنع إطاراً مميزاً لدائرة وجهها الجميل. خيل اليّ لوهلة وأنا أحملق فيها بتلك الطريقة البلهاء. ان فيها شيئاً سودانياً خاصاً! فيها ملمحاً له نكهة شوارع أم درمان وأزقتها.

قالت: إسمي رجاء.

قلت مندهشاً: لكنه إسم عربي.

ضحكت وهي تقول:

- هذه حكاية طويلة.

- هل أكون سعيداً ويسعفني الحظ بسماعها؟ أنا ضيف على بلادكم لمدة اسبوع واقيم بفندق الشمس المشرقة.

- أهلاً بك في بلادنا.

- أهلاً بك في كل وقت!

قلتها وأنا أطلق ضحكة عابثة بينما ألمزها بعيني. لكنني شعرت وقتها انني تجاوزت حدودي. كانت تبدو رقيقة. غضة الشباب. قلت معتذراً.

- عفواً اذا كنت قد تجاوزت حدودي!

ضحكت وهي تعود إلى مقعدها وتجلس قائلة:

- سوف أتصل بك بالهاتف.

وفي لهفة أدخلت أصابعي في جيوبي أبحث عن كارت الفندق.

نظرت الىّ في قلق ربما ظنت انني سأعطيها بقشيشاً ثمناً لظرفها معي وقالت في تردد.

- عن ماذا تبحث ياسيدي؟

- عن كارت الفندق.. أريد أن أعطيك رقم التليفون. ضحكت، ربما لسذاجتي، وقد عاد لوجهها البهي صفاؤه

- أنا أعرفه، كل عملائنا ينزلون فيه.

تناولت غداء شهياً، كثير التوابل عند عودتي للفندق ثم أخلدت للنوم، صحوت وأنا أشعر بحرقان في معدتي. تناولت الدواء وخرجت أتمشى في دورة كاملة حول الفندق، وبرق في ذهني حديث عاملة الإستقبال حين أعطيتها مفتاح غرفتي،

- سيدي إحذر النشالين والأشقياء اذا كنت ستذهب في جولة حول المدينة.

ازعجني جداً إلحاح المتسولين وأحزنتني مناظر البؤس والفقر في الشوارع الجانبية والتي ذكرتني بالحياة التعيسة البائسة في أحياء وأزقة إمتدادات أم درمان الجديدة.

عدت بعد ساعتين إلى الفندق، قالت عاملة الإستقبال

- هناك سيدة اتصلت بك، لم تترك إسمها قالت انها ستتصل بك في الساعة التاسعة مساء اليوم.

شكرتها وصعدت إلى غرفتي وقد تيقنت انها ربما.. الفتاة السكرتيرة التي تحدثت إليها في الصباح.

في التاسعة تماماً انطلق رنين الهاتف، كان صوتها جميلاً وأنسها حلواً واستغرقنا في حديث طويل حتى الساعات الأولى من الصباح، لكن

جرأتها أدهشتني منذ الحادثة الأولى.

قالت دون حياء أو مواربة:

- أقول لك الحق.. أنا أحب الرجال السودانيين بعجبونني كثيراً.. لقد قررت أن أعرفك من اللحظة الأولى التي دخلت فيها مكتبي.

أذهلني هذا الإعتراف الصريح بجرأته ثم قلت في بلاهة...

- هل .. عرفت الكثيرين من الرجال السودانيين؟

قالت في استخفاف مبتذل:

- كل الذين يأتون إلى قسم الشركة الذي أعمل به كانوا يتشبثون بعرفتي.. وقد سافرت مع أحدهم الى مدينة «دبرزيد» لمدة ثلاثة أيام في مهمة عمل. كان رجلاً كريماً.. جنتلمان بحق.

وعدتني بجولة في المدينة.. ودعوتها لتناول طعام الغداء معي في الغد.

بعد خروجي من مكتب المدير في اليوم التالي لم أتوقف للحديث مع رجا، لأنني لاحظت وجود عدد من موظفي الشركة بمكتبها. لكنني فوجئت بها تحمل حقيبتها وتأتي خلفي. فكانت هذه هي المفاجأة الثانية. المفاجأة الأولى كانت معانقتها لي وسط الموظفين حين دخولي مكتبها في الصباح وكأنها تعرفني منذ سنوات طويلة..

قالت بجرأة وهي تضحك بصوت عال:

- انتظر، أيها السيد، هل نسيت دعوتك لي اليوم للغداء؟

قلت متعجباً: هل تذهبين معي الآن؟ أم انك ستلحقين بي في الفندق؟

- بل سأذهب معك الآن.. إنتهى عملي اليوم..

ابتسم لها السائق. تحدثت إليه باللغة الأمهرية وشعرت بالكثير من

المرح والضيق حين ارتفعت قهقهات السائق وهي تمد إليه يدها وتقرصه في مشاكسة قائلة:

- أيها الشقي.. أعلم أنك تغار منه.

عند وصولنا للفندق، تصرفت بطريقة عادية وكأنها صاحبة الدعوة وأنا هو الضيف!

طلبت الغذاء في الغرفة ثم سألتني بصوت عال...

-هل تريد بيرة مع الغذاء أم تفضل الويسكي؟!

تلفت حولي في توجس وقلت بصوتٍ منخفض:

- بيرة.. بيرة مثلجة..

سبقتني نحو المصعد. في الغرفة بدلت ملابسها أمامي وارتدت قميصاً للنوم، قصيراً، عارياً. كانت تحمله في حقيبتها اليدوية اشمأزت نفسي لوقاحتها وابتذالها لكن جمالها الساطع بهرني ولم يترك لي أدنى فرصة لرفضها. وقلت لنفسي: إنما هي فتاة ليل عابرة، سأنساها بمجرد سفري وستبحث عن رفيق آخر.

الشيء الذي حدث هو أن رجاء لم تفارقني ساعةً واحدة بعد تلك الليلة. أحضرت حقيبة ملابسها وسكنت معي في غرفتي في الفندق. نخرج سوياً للمكتب ونعود سوياً. نتناول الغذاء ثم ننام وفي العصاري تأخذني للنزهة والطواف حول المدينة ونعود في المساء للعشاء والسمر في «التراس» الجميل الملحق بالغرفة. كانت إمرأة ممتعة جميلة الأنس تضاهي شهرزاد مقدرةً في سرد الحكايات المشوقة.

كنت أشعر بأنني في حلم رائع جميل ولكنني كنت أعلم بأنني سأصحو منه وسأسافر وأعود إلى حياتي الطبيعية وسيكون ما حدث مجرد

ذكريات أحكيها لأصدقائي

في اليوم قبل الأخير من سفري فاجأتني رجاء، عندما اخبرتني بأن أباها سوداني الجنسية، وإنه جاء للتجارة في أثيوبيا ولم يوفق فيها وتزوج من أمها إبنة أحد التجار الأحباش من أصدقائه لكنه توفى بعد ولادتها بسبعة أعوام وكانت أمنية حياته أن يذهب بها هي وأمها إلى بلاده لكن المرض والفقر قعدا به دون ذلك. ثم تزوجت أمها وسافرت الى مدينة أخرى وهي في العاشرة وتركتها تحت رعاية جدها وقد توفيت جدتها بعد وفاة أبيها بسنة واحدة.

كانت تذهب في الصباح إلى المدرسة ثم تعود منها مباشرةً إلى المتجر، وتبقى مع جدها إلى أن يحل الليل. يأكلان عشاءهما ويذهبان إلى المنزل هي لتنام فوراً بعد يومها المرهق بينما يبقى جدها ساهراً يسكر طول الليل.. وظل هذا حاله حتى توفي وهي في الخامسة عشر.

كانت لا تعرف شيئاً عن أبيها غير أن إسمه عوض محمد أحمد ولا تذكر من الحكايات التي كان يحكيها لها جدها عنه سوى أنه جاء من مدينة صغيرة تقع بمحاذاة النيل فيها بساتين نخيل وأشجار ليمون وبرتقال. وكان يوجد بها مدارس للبنات حتى المرحلة الثانوية وكان يتمنى أن يأخذ إبنته رجاء إلى هناك لتتعلم مع بنات أخواته وتتربى وسط عشيرته.

اشعل عادل لفافة أخرى. كانت الطفاءة قد امتلأت بأعقاب السجائر. نهضت رجاء من مكانها. اخذت الطفاءة وأفرغتها ثم عادت ووضعتها أمام عادل.

قال عادل:

- بعد عودتي للخرطوم، حاولت كثيراً أن أنسى مغامرتي مع رجا ، في أديس أبابا ، لكن صورتها احتلت فؤادي، وكانت هي تلاحقني بالهاتف والمحادثات الطويلة.

أرسلت لها تذكرة سفر في عيد رأس السنة وأنزلتها في فندق « قرين فليدج». كانت سعيدة جداً وكنت سعيداً بوجودها بجانبي، لكنني كنت دائماً أشعر بأن سعادتي معها هي شيء أشبه بدوار مخدر أو غيبوبة ضبابية لحلم شهي لابد أن أصحو منه.

فاجأتني في ليلة رأس السنة بأن هديتها لي بمناسبة أول العام الجديد هي خبر استقالتها من عملها وقرارها بالبقاء معي بالسودان. قابلت قرارها بقليل من الفرح والكثير من التوجس والحذر وإن لم أظهر لها ذلك. كنت أذهب لها يومياً في المساء، لكنني أتفادي الخروج معها خشية أن يرانا أحد أو يتسرب الخبر إلى أصدقائي وأفراد عائلتي.

لا أنكر أنني عشقتها بجنون وإن كنت لا أثق في تصرفاتها مطلقاً. قالت لي يوماً أن مدير الفندق طلب منها أن تعمل معه في وظيفة سكرتيرة. ويومها جُنَّ جنوني. كانت المرة الاولى التي أعرف فيها أنها تعادت احداً في غيابي. صفعتها على وجهها بقسوة وأخذتها إلى الشقة التي كانت يوجد بها مكتبي القديم واغلقت عليها الباب بالمفتاح.

كنت أعود إليها كل يوم محملاً بالأكل والشراب والهدايا، لكنها كانت ترفضني وتظل تبكي وترفض الأكل والحديث معي. كنت أصر عليها وأتعامل معها بالكثير من اللامبالاة وأنا واثق بأنها ستعود إلى سيرتها الحبيبة العاشقة بعد أن تتأقلم على وجودها في الشقة التي كانت تسميها سجناً.

لكنها تمرّدت، وأظهرت مخالبها، وخيرتني بين الزواج منها وتبقى مخلصة لي لا تبارح الشقة مطلقاً أو تسريحها وتركها تفعل ما تريد وإلا فإنها ستفضحني وتصرخ في طلب الجيران وتطلب منهم الإتصال بسفارة بلادها وستشكو لهم سوء معاملتي لها.

ورضخت لطالبها. عدت بالمأذون والشهود وعقدت عليها شرعياً وأصبحت زوجتي. وطبعاً ما كان ممكناً أبداً إخبار أمي بالأمر. كنت في قناعاتي الداخلية غير راضٍ عن تصرفاتي وأشعر بالإشمئزاز من نفسي، وكنت لا أثق بها مطلقاً. لا بتصرفاتها ولا بحديثها. لم تكن تعرف رقم تليفون أو عنوان منزلنا ولا كنت أسمح لها بمغادرة الشقة أو الإتصال بأحد. أفاجئها بالزيارات والتليفونات. ويا ويلها مني إذا كان رقم تليفونها مشغولاً.

قلت لها مرة في ساعة صفاء:

- هل تعلمين.. أن أختي إسمها رجاء؟!

قالت بفرحة حقيقية:

- أتمنى لو أتعرف عليها.

قلت بحدة:

- هذا لن يحدث أبداً. أبداً أتفهمين؟

واجهتني بعينيها في تحدٍ ولم ترد عليّ غير أنها اكتفت بابتسامة ساخرة وهي ترمقني في حقد واضح أشعر له بخوفي.

كانت الضربة القاصمة بالنسبة لي هي يوم بدأت عليها أعراض الحمل. كنت في داخلي أحتقرها ولا أثق بأخلاقها. كانت تسكر وتدخن ولا تتورع عن عمل أي شيء يرضي غرائزها النجسة كانت قد تعودت في

صباها على عمل كل ما يروق لها دون حسيب أو رقيب بل أنها تفاخرت أمامي دون حياء، وذكرت لي أنها مارست الجنس وهي في الخامسة عشر من عمرها وأنها جربت تعاطي الحبوب المخدرة عندما كانت في الثامنة عشر ولولا أنه كان يتعذر عليها الحصول على ثمنها.. والمحافظة على مظهرها بالراتب القليل الذي تتقاضاه من الشركة، وإلا تمّ فصلها وفقدت مصدر رزقها، لأصبحت من المدمنات.

الذي يحيرني هو أنني كنت عاجزاً تماماً عن الإستغناء عنها. كنت قد أدمنت معاشرتها وأصبحت لا أتصور حياتي بدون وجودها. تزوجتها زواج متعة ولم أكن أتوقع أنها يمكن أن تحبل مثل بقية النساء، ولم يخطر على بالي قط كون أنها ستكون أماً لأولادي.

طالبتها بإسقاط الجنين ولكنها رفضت. المجرمة.. كانت قد أخفت الأمر عني، حتى صار عمر الحمل خمسة أشهر وبرزت بطنها. وجن جنوني. كنت أضربها لأتفه الأسباب وأشتمها كل صباح وأبصق على وجهها وأتهمها بأنها خدعتني. كانت تعتقد أن الحمل قد يحببها اليّ أو يقربها مني ولما خاب ظنها كرهتني وكرهت حملها.

وفي مستشفى الحكمة بأم درمان وضعت جنينها بعد أن أكملت شهور حملها وكان.. طفلةً جميلةً. رقّ قلبي لها حين رأيتها. قطعة من نفسي، أسميتها سندس. لكن رجاء كانت قد يئست من محبتي أو إحترامي لها وطلبت مني الطلاق.

قالت إنها تريد السفر إلى بلادها. رفضت الأكل نهائياً ورفضت إرضاع الطفلة أو رؤيتها. خفت أن تمرض أو تظل في المستشفى لفترة طويلة فينكشف أمري. أحضرت المأذون والشهود وطلقتها طلاقاً بائناً لا

رجعة فيه. وبالأمس أرسلتها إلى الجحيم الذي جاءت منه بعد ان كتبت تعهداً بأنها لن تطالبني أبداً بحقوقها في حضانة الطفلة أو رؤيتها. أحسست بالراحة والخلاص حين رأيت الطائرة التي تحملها تقلع عن سماء الخرطوم. كانت كأغنية النار.. تلاعبت بعواطفي وأحرقت أعصابي وتركتني بقايا حطام.. بقايا رماد.. لا تزال سخونته تلظّ في قلبي.

صمت قليلاً.. مسح وجهه بكفيه. رفع رأسه الى أخته رجاء والدموع في عينيه قائلاً:

- ابنتي لا تزال بالمستشفى دفعت لهم مبلغاً اضافياً ليبقوها في حضانة الأطفال حتى أتدبر الأمر. إنني حقاً لا أدري كيف أتصرف.. كيف يكون وقع الخبر على أمي وقد رأيت كيف ارتفع الضغط عندها وكادت تروح فيها يوم سمعت برحيلك. أشعر بأنني مرهق عصبياً وأخشى على نفسي من الجنون!

كانت تنظر إليه في ذهول وكأنها لا تصدق مسامعها.

نهض واقفاً.. وكأنه ينفض يديه من الموضوع برمّته.

- أنا متعب.. سوف أذهب إلى غرفتي لأرتاح قليلاً الأمر كله بين يديك الآن ولك مطلق الحرية في التصرف.. ويستحسن عدم اخبار أمي بالموضوع سوف تكون صدمتها كبيرة في إبنها الوحيد وأخشى عليها من عواقب ذلك.

بقيت صامتة مطرقة برأسها تحاول مداراة دموعها عنه.

نظر إليها وقال بسرعة وكأنه يهرب من ردود فعلها العنيفة.

- الشيء المهم الآن هو أن سلطات المستشفى لن تتحمل تبعة وجود الطفلة أكثر من خمسة أيام أخرى.. وينبغي تدبر أمر خروجها.

«٩»

عندما استيقظت رجاء، في الصباح، كان عادل قد خرج. قالت والدتها انه كان متعجلاً في ارتداء ملابسه وفي احتساء قهوته.. وخرج باكراً على غير عادته.

قالت لوالدتها انها ستذهب لزيارة صديقة لها. كانت لا تزال متعبة بعض الشيء، وهي لم تترك المنزل منذ حضورها من المستشفى، لكن مارواه لها عادل عن قصته مع زوجته الأثيوبية والطفلة الوليدة التي تنتظر بالمستشفى كان شيئاً أشبه بقصص الأفلام السينمائية. كانت تحتاج إلى رؤية الطفلة حتى تتأكد أن ما قاله لها عادل ليلة البارحة هو حقيقة واقعة وليس كابوساً مرّ على أحلامها. أخذت تاكسياً مباشرة لأم درمان وسألت في مستشفى الحكمة عن الصغيرة. ترددت مسؤولة قسم الأطفال قليلاً ثم أدارت رقم هاتف مكتب عادل وتحدثت إليه وأخبرته بأمر الزائرة، ثم ابتسمت لها وأخذتها إلى قسم الأطفال.

مجموعة من الأسرّة تصطف في غرفة واسعة. عشرات من الأطفال

على الأسّرة البيضاء، بعضهم يبكي في ضوضاء محببة وبعضهم نائم، وآخرون يحملقون في سقف الحجرة الأبيض بعيون بريئة وكأنهم يتساءلون عن سبب وجودهم في هذا المكان البارد.

رفعت اليها الممرضة طفلة جميلة في لباس أبيض، ممتلئة صحة وعافية، شعر رأسها خفيف أملس وتقاطيع وجهها دقيقة حلوة.

كاد قلبها يتوقف عن الخفقان عندما حملتها إلى صدرها. تشممتها ولثمت جبينها وهي تحتضنها في حنو بالغ، وخامرها إحساس عميق بأن هذه الطفلة هي هدية السماء إليها.

حين عودتها إلى المنزل أخبرتها والدتها بأن زوجها اتصل هاتفياً مرتين وقال إنه سيتصل بها في المساء... مرة أخرى.

كانت تشعر بسعادة بالغة وانتظرت حضور عادل بفارغ الصبر لتخبره بقرارها وأنها ستأخذ الطفلة معها وسوف تشرف على تربيتها ورعايتها.

كان عادل قد أكمل أوراقه الرسمية استعداداً للهجرة إلى كندا لكنه ظل متردداً في اتخاذ الخطوات الأخيرة خوفاً من غضب أمه خصوصاً بعد وفاة والده وسفر رجاء مع زوجها إلى خارج الخرطوم وكان وجود الطفلة المفاجئ في حياته يزيد الأمور سوءاً بالنسبة له ويعطل الكثير من مشاريعه المستقبلية.

عند عودة عادل دخل عليها مباشرة في حجرتها وأغلق الباب خلفه ثم سألها بقلق.

- هل رأيت البنت؟ ما رأيك بها؟ قولي لي ماذا أفعل بها؟

- إنها إبنتي، أرسلها الله اليّ، لتخفف عني آلام الحرمان من الأطفال.. أرجوك دعني أشرف على تربيتها.

وأخذت الدموع تهطل بغزارة من عينيها وهي تتوسل إليه في انفعال أن يترك البنت في رعايتها.

بهت عادل لإنفعالها في البداية، فقد نسي تماماً في غمرة حيرته وحزنه مشكلة حرمانها من الأمومة. ثم أخذ يضحك في ارتباك وهو يقول:

– أرجوك، لا تبكي.. سأكون سعيداً جداً وهي في حضانتك.. لقد خلصتني من مشكلة عويصة.

سكت قليلاً ثم قال:

– لكن ..هل سيكون هذا أيضاً رأي زوجك؟ هل سيتقبل وجودها معك؟

– أنا كفيلة بإقناعه.

– ووالدتي.. ماذا تقولين لها؟

– سأقول لها إنني أخذت الطفلة من المستشفى.

وجم برهة وقطب جبينه وكأن ردها لم يعجبها

لاحظت ما طرأ على ملامح وجهه، فقالت بسرعة:

– سأقول لوالدتي إنها بنت حلال وأن والدتها توفيت ساعة مولدها ولا أحد يعرف مكان والدها.

قال في حزن:

– تصرفي كما تشائين.. ولكن تذكري دائماً إنها إبنتي رغم كل شيء.. وستكون ابنتك إذا شئت ذلك

عانقت عادل طويلاً وهي تبكي.. وخيل إليها أنه ينتحب في صمت وأن الدموع قد تحجرت في مآقيه.

قال زوجها في التليفون تلك الليلة..

– ما شاء الله يبدو صوتك متعافياً.

قالت وهي تحس بالسعادة تمرح في كل خلايا جسدها.

– الحمد لله. كيف حالك أنت؟

– على أسوأ حال.. تعالي بسرعة، وجودك يلطف كثيراً من هذا الجو الخانق الذي أعيش فيه.

لاحظت ارتباكاً في نبرات صوته المتهكة، شيئاً.. مبهماً أثار في نفسها قلقاً غامضاً. كان الإنقلاب العسكري قد فشل وزج بقادته في السجون. وشنت السلطات الحاكمة حملات عنيفة ضد الذين ناصروا الإنقلاب، وقامت حملات واسعة من الإعتقالات العشوائية الهوجاء.

كان الجو السياسي عكراً ومتوتراً للغاية. وفي تلك الليلة ثارت مخاوفها على زوجها بصورة أقوى، وتذكرت برقية التهنئة التي أرسلها إلى صديقه قائد الإنقلاب.

تأثرت والدتها كثيراً. وقد ألفت وجودها إلى جانبها في الأيام السابقة عندما أخبرتها أنها ستسافر بعد يومين لتكون بجانب زوجها.

في مساء اليوم التالي خرجت مع عادل للتسوق. إشترت ملابس ولوازم الطفلة وأغطية ودثارات وأواني حليب. كانت فرحة سعيدة، كأنها أم صغيرة تحضر لوازم طفلها البكر.

كان عادل قلقاً بشأن تقبل زوجها لوجود الطفلة في حياته. لكنه سكت على مضض وهو يلاحظ فرحتها وسعادتها الطاغية بالطفلة.

همس لها عادل بعد أن تأكد من وضع حقائبها في الحافلة وجلوسها –والطفلة في أحضانها– في مقعد مريح.

– لا تهملي في صحتك.. إذا سببت لك الطفلة أي نوع من الإرهاق لا

ترددي في إخباري بالأمر. قولي للجميع أنك أخذت الطفلة من المستشفى. إذا غضب زوجك أو تضايق من وجود الطفلة في حياته فما عليك إلا...

- اسكت يا عادل.. أرجوك لا تفسد عليّ سعادتي بوجود الطفلة في حياتي المجدبة.. إنها هدية من القدر ساقتها الظروف إلى طريقي.. ستكون مثل ابنتي تماماً.. لا تقلق.. سيكون كل شيء على ما يرام.

- سوف اتصل بك في المساء بالهاتف لأطمئن على وصولكما بالسلامة.

وقف عادل يلوح لها. حتى تحركت الحافلة. سكنت في مقعدها وهي تضم كنزها الثمين إلى صدرها. للحظات خيل إليها أن عادل سيغير رأيه في إصطحابها للطفلة. وقالت لنفسها: إن انتزاع شعلة الحياة من بدنها سيكون أهون عليها ألف مرة من انتزاع هذه الطفلة الصغيرة الحبيبة من أحضانها.

قابلها زوجها عند موقف الحافلات، وقد أخطره عادل هاتفياً بموعد وصولها. إستقبلها بحرارة رصينة وقد التفتت كل العيون نحوه تتأمل وسامته الأنيقة وسترته العسكرية بنجومها الزاهية.

ظن في البداية أنها تحمل طفلاً لإمرأة أخرى لتساعدها عند نزولها من الحافلة. تمهل قليلاً ثم تملكته الدهشة الشديدة حين لمح رجاء تتقدم بسرعة والطفلة في أحضانها نحو السيارة.

قال في ذهول:

- مهلاً.. ما هذا الذي تحمليته؟

- إنها إبنتي ستنس.. إبنتنا.

- إبنتنا؟! ما شاء الله!!

ثم ضحك قائلاً: إسبوعان فقط و ....؟!!

كانت مرهقة جداً.. وبدأت الطفلة في البكاء، وكأنها تحتج على حديثه.

لم تستطع مواجهة نظراته.. المتسائلة في إلحاح فأطرقت بعينيها في صمت.

قال في صرامة قاسية:

- من أين أتيت بهذه الطفلة؟

- من المستشفى. والدتها توفيت حال وضعها ووالدها مجهول.. لقد حجزتها من المستشفى ثم استلمتها صباح اليوم.

- بهذه البساطة!! لماذا لم تستشيريني في الموضوع؟

- لم يكن هناك وقت.. الأحداث جاءت متلاحقة وفي سرعة.. وتصرفت حسب الظروف.

قال غاضباً: دائماً تفعلين ما يحلو لك ثم تحاولين بعد ذلك إيجاد المبررات لتصرفاتك..! كان يجب عليك إن تأخذي رأيي أولاً.

- أرجوك.. سوف أشرح لك كل شيء في البيت. دعنا نذهب من هنا بسرعة.

أخذ الطفلة منها ليساعدها على الصعود إلى السيارة البوكس العسكرية العالية. فتح الغطاء عن وجهها الصغير، وتفرّس فيه في صمت ثم ناولها الطفلة وصعد إلى السيارة في ضيق واضح.

كان الموقف صعباً للغاية على غير ما توقعت، فقد وجدت عواطف ورباب وسيدة صديقاتها وجاراتها في انتظارها، وقد ازدان المنزل ببالونات

الزهور والطباق الحلويات وأنواع الزينات إحتفالاً بعودتها.

إلتقت بالطاهية العجوز عند باب الفناء الخارجي. عانقتها بحرارة شديدة ودفعت إليها بالطفلة لحملتها نيابةً عنها.

إستقبلتها رباب بالأحضان وهي تبكي. وكان ترحيبهن جميعاً بمقدمها حميماً ودافقاً. كانت كلمات الترحيب بها تتعالى عندما دخلت الطاهية وناولتها الطفلة. نظرن إلى بعضهن في تساؤل... ودخل عاصم فجأة. مدّت سيدة يدها تصافحه بسرعة وهي تغالب حب الإستطلاع. التفتت إلى رجاء وهي تقول بدهشة.

- بنت من هذه؟!

ترددت قليلاً وقد اتجهت إليها الأنظار بينما عاصم يراقب تفجر الموقف في غبطة. خفضت عينيها قليلاً ثم قالت في شجاعة:

- بنتي.. إنها إبنتي سندس.

قالت سيدة في مشاغبة عابثة:

- في إسبوعين حبلت وولدت! ما شاء الله..

ثم وقفت بطريقة مسرحية وأطلقت زغرودة. حدجها عاصم بنظرة قاسية أخرستها وقتلت الزغرودة في حلقها.

حملت منهارباب الطفلة وقد بدأت في البكاء. واخذت تهدهدها.

تفحصت سيدة الطفلة بإعجاب وهي تقول :

- والله انها جميلة.. تبدو صغيرة للغاية.. هل اعطوك إياها في المستشفى؟!

رمقتها عواطف بلوم واستنكار فسكتت. تشبثت رجاء بما تبقى لها من شجاعة وكأنها غريق يتشبث بحبل النجاة وهي تقول:

- نعم اخذتها من المستشفى... المسكينة، أمها توفيت حال وضوعها ولم يكن بجوارها أحد.. جاءت الى المستشفى ساعة المخاض وماتت مباشرة بعد الولادة لذلك تبنيناها أنا وعادل أخي. هو استخرج لها شهادة الميلاد بإسمه وأنا سأقوم بتربيتها.

تصايحت النسوة بالإستحسان وهن يرمقنها في إعجاب.

- والله فيك الخير.

- ربنا يجزيكم خير ويفتح في وجهكم باب الرزق.

- يا للطفلة المسكينة.. ربما أراد الله حقاً... إرسالك الى الخرطوم في ايام ولادتها لإنقاذها.

قطع زوجها الهرج قائلاً.

- وأنا .. ألم يكن من الواجب إستشارتي في هذا الأمر المهم بما ان الطفلة ستعيش في بيتي؟

ردت عليه في حدة وغضب.

- لم يكن هناك زمن - أخبرتك بهذا - تصرفت بسرعة لأنقذ الطفلة المسكينة وكنت واثقة من انك لن تمانع في عمل الخير.

اتجهت إليه انظار النسوة في رجاء محرج. تردد قليلاً ثم ابتسم قائلاً في استسلام:

- طبعاً لن أمانع.. اعطانا الله هدية.. أتمنى ان يوفقك الله في تربيتها يا سيدتي.

لم تتمالك نفسها من الفرحة. تساقطت دموعها وأخذت تبكي من الإنفعال . دخل زوجها الى غرفته، والتفت حولها النسوة يهنئنها ويباركن لها البنية.

في المساء، اتصل عادل هاتفياً ليطمئن على وصولهما بخير. تحدث طويلاً مع زوجها ثم تحدث إليها وقد بدا منشرحاً سعيداً بعد ان اطمأن على تقبل زوجها لوجود الطفلة في بيته. ورجته ان يخبر والدتها بالخبر تدريجياً ويحكي لها ما قالته هي أمام صديقاتها وزوجها، لأنه يبدو حكاية مقبولة تبرر من كون أن عادل هو الأب المكتوب في شهادة الميلاد وعسى الله ان يجعل الخير في ما حدث.

كانت مرهقة، منهكة من السفر ورعاية الطفلة، وتوافد الزائرات، لكنها نامت نوماً متقطعاً والطفلة تصحو بين وقت وآخر وتبدأ في البكاء، طلباً لرضاعة الحليب.

« ١٠ »

في مدينة نخيلات عند الحدود بين اليمن والسعودية استقر بنا المقام. كانت مدينة جميلة محاطة ببساتين النخيل لكن الأجواء حولنا هادئة رتيبة لدرجة لا تطاق لا أدري كيف كان سيكون حالنا لولا وجود سندس بيننا. أصبح عمرها الآن خمس سنوات. طفلة جميلة رائعة اخذت من امها جمالها ولونها الأخاذ واخذت من عادل مرحه وشخصيته المدهشة الرائعة.

كانت سندس بالنسبة لي تعويضاً لما ضاع من أيام عمري في حرمان وامومة ظامئة.. ولكنها بالنسبة لزوجي فتاة اللقطة كان وجودها في بيته نذير شؤم توالت بعده النكبات والكوارث.

لم يكن يبخل عليها مادياً ولا عاطفياً ولكنه لم يكن يكلف نفسه مشقة إخفاء نفوره وضيقه بها.

بعد مرور شهر واحد من وصولي الى مدينة هشابة بصحبة سندس وفي صبيحة يوم أغبر ترك اثره الكئيب على حياتنا خرج زوجي كالعادة إلى

مكتبه وانشغلت أنا في ترتيب احتياجات الطفلة ومشاغل المنزل العادية. وفجأة بعد العاشرة بقليل شعرت بأن هناك حركة غير عادية، جاء الخدم مذعورين واخبروني بأن زوجي، ومعه عربة أخرى محملة برجال الجيش قد حضروا.

ظننتهم ضيوفاً في البداية لكن طريقة دخولهم والنظرة القلقة في عيون زوجي أفزعتني.

قلت في جزع: خيراً؟

قال بسرعة : جهزي لي شنطة صغيرة بسرعة.. ضعي فيها بعض الملابس وأدوات الحلاقة سوف اذهب في مأمورية صغيرة، الى الخرطوم.

كان يفصل بيننا ضابط برتبة رائد بينما وقف خلفهما عدد من شرطة الأمن ومعهم شرطي آخر بكامل سلاحه. كنت أعرف كل الضباط والعسكريين الموجودين في المدينة مع زوجي تقريباً ولكن هؤلاء جميعاً كانوا غريبين عن دائرة معرفتي.

قلت للضابط في حدة..

- ماذا في الأمر؟ أرجوك اخبرني بالحقيقة.

قال في حزم وفي لهجة تحذيرية:

- أرجو أن تفعلي ما طلبه منك زوجك بهدوء.

نظرت الى زوجي يبادلني النظر في رجاء صامت ثم قال:

- لا تخافي هيا.. جهزي الأغراض.. بسرعه.. لاتخافيّ.. سيكون كل شيء على ما يرام.

في ذهول تام وضعت قميصين وبنطلونين وآلة الحلاقة وكلونيا وجلابية واحدة في شنطة صغيرة. ومض في ذهني خاطر مفزع وأنا أقول في

خوف:

- هل أضع لك ملابسك العسكرية؟

رد الضابط بابتسامة غامضة.

- لا داعي لذلك.. ضعي له ملابسه المدنية.. جلاليب أحسن!

في تلك اللحظة فقط فهمت! ما يحدث لزوجي انما هو استدعاء عسكري له من مركز القيادة . وبدأت بالبكاء... شعرت انني على حافة الإنهيار لكنه نظر اليّ في توسل.. قائلاً..

- رجاء ارجوك..تمالكي أعصابك.. سيكون كل شيء على ما يرام.

وضعت في الحقيبة جلابيتين وملابس داخلية ومصحفاً... ثم وضعت ملاءة «كورتة» سورية الصنع ثقيلة. وقد تذكرت حديث إحدى زوجات المعتقلين من شكوى زوجها من الغرف الباردة التي يتحفظون على المعتقلين العسكريين فيها. ثم حملت الحقيبة وانا أكاد لا أرى ما أمامي وناولتها لزوجي. مدّ الشرطي يده وتسلمها نيابة عنه.

مدّ زوجي يده. مودعاً وهو يحاول الابتسام قائلاً: شدّي حيلك.. سوف اتصل بك حال وصولي الخرطوم.

وقفت ارقبه وهو يخطو خارج المنزل وأنا أبكي بصوت عالٍ. بعد عدة خطوات وقف وتحدث الى الضابط بصوت منخفض. هز رأسه موافقاً ثم قال يخاطبني:

- اطمئني يا مدام. سيكون هناك جندي مناوب لحراستك لحين عودة زوجك بالسلامة.

وحال تحرك العربات من أمام منزلنا تعالت أصوات البكاء.. كنت أبكي واصرخ بصوت عال وكان لادو يبكي والطاهية العجوز تحمل

ستندس وهي تبكي قائلة:-

- الله يهوّن عليك يا ولدي.. الله يهوّن عليك.

كان يوماً عصيباً قاتماً في تاريخ حياتي. رفضت كل أنواع الطعام التي حملتها لي الجارات والصديقات. حاول أصدقاء زوجي تهدئتي وقد هرعوا إلى منزلنا مسرعين بعد عودتهم من العمل وعلمهم بما حدث.

تطوع بعضهم بإخطار أخي عادل بالهاتف. وقد تعطل هاتف منزلنا منذ اللحظة التي غادره فيها زوجي لا أدري حتى الآن إن كان ذلك بفعل فاعل أو إنها الصدفة وحدها التي عطلته في ذلك الوقت الذي كنت فيه في أمسّ الحاجة للإتصال بأهلي وأهل زوجي والإستنجاد بهم لمعاونتي في الحدث المؤلم.

لازمتني رباب وعواطف طيلة الفترة وفي مساء نفس اليوم إتصل عادل بحسن صديق زوجي وزوج رباب وأعلمه انه سيحضر لزيارتنا لا يدري متى.. ربما بعد ثلاثة ايام حتى تتضح الرؤية ويعرف تحديداً ما هي تهمة عاصم التي أدت إلى هذا الإستدعاء العسكري.

بالنسبة لي كنت أعلم أن البرقية التي أرسلها زوجي لقادة الإنقلاب الفاشل هي السبب. لقد كانت تلك البرقية مصدر قلق لزوجي في الأيام التي تلت فشل الانقلاب مباشرة، ولكن بعد مرور عدة أسابيع ظننا أن الأمر قد مرّ بسلام إلى أن جاء ذلك اليوم البغيض. وقد أخبرتني رباب فيما بعد.. أن زوجها أخبرها أن طائرة حربية خاصة قد أرسلت من الخرطوم وعلى متنها عدة ضباط من بينهم الرائد حسين موسى الذي أرسل لاصطحاب زوجي إلى مقر القيادة العسكرية.

بعد ظهر اليوم الثالث وصل عادل، عانقته وأنا أبكي بشدة.. حاول أن

يكون طبيعياً في تصرفاته ولكنه كان عصبياً وفي عينيه غيوم من الحزن والقلق.

لاحظت ارتعاشة يديه وهو يحمل سندس وينحني عليها ويقبلها.

بعد أداء مهام الضيافة انسحبت النسوة ليتركنني وحدي مع أخي.

قلت..

– لست صغيرة عقل ولا صغيرة في السن يا عادل.. أريد الحقائق كما هي عارية من غير أي محاولة منك لتخفيف الأمور.. أرجوك يا عادل!

نظر اليّ لبرهة صامتاً ثم اغتصب ضحكة قصيرة وهو يقول..

– عارية!! عارية؟ كيف؟ والبلاد تحكم بالشريعة الإسلامية هل تريدين إرسالي الى السجن؟

ثم أشعل سيجارة وقال باقتضاب..

– عاصم سيقدم لمحاكمة عسكرية.. هو الآن معتقل مع مجموعة من الضباط الشيوعيين في احد بيوت الأمن بالخرطوم شرق.

انهرت تماماً .. جلست على السرير وأنا ابكي في حرقة وعادل يرقبني صامتاً وهو يدخن بشراهة.. ثم قال:

– اسمعي يا رجاء .. ربما سيأتي جنود بعد يوم أو يومين لإستلام هذا المنزل.. يستحسن أن تستعيني بجاراتك من الآن وتبدأي في جمع حاجياتك الخاصة والأثاث الذي يخصكم في المنزل. ستسافرين معي وسأسلم مفتاح المنزل بنفسي للضابط المسئول هنا.

ثم أضاف بعد برهة : هذا سيكون أكرم وأفضل من حضور شلة من العسكر الوقحين لإستلام البيت وتعريضك لمهانة ردود الأفعال.

وخرج عادل مسرعاً وكأنه يهرب من بكائي ومن الموقف الحرج كله

وجلس في الصالة الملحقة بالصالون. لكنه لم ينس قبل خروجه أن يداعب الطفلة التي ظلت خالتي حليمة الطاهية تحملها وهي تبكي لبكائي.

جاء حسن وأحمد وعبدالفتاح ورضوان، واجتمع كل الجيران وكبار الموظفين في منزلنا. وهم يسألون عادل بلهفة عما حدث لعاصم ويبدون أسفهم. ثم امتلأ المنزل بالسيدات.

في الخارج جلس شرطيان للحراسة، وقفا بالخارج عند الباب دون أن يحاولا دخول المنزل أو التحدث إلى أحد. وفي المساء جلست رباب وعواطف معي وبدأنا في جمع وترتيب الأواني والتحف والكتب الكثيرة التي تملأ أرجاء المنزل. فقد كانت القراءة - قبل مجيء سندس - هي السلوى الوحيدة في حياتي.

كنت أحاول إبداء التجلد والتماسك أمام جاراتي لكن شجاعتي خانتني وأنا أجمع ملابس زوجي من غرفة النوم ودخلت في نوبة بكاء عنيفة لدرجة أن صديقاتي استدعين أخي وقد خفن من عاقبة إنفعالي الشديد.

قال عادل: إهدأي.. انت لا تزالين في طور نقاهة.. ينبغي أن تتشجعي حتى لا يعاودك المرض.. هذا ليس الوقت المناسب لإعادتك للمستشفى.

هتفت وسط نشيجي : لماذا يارب كل هذا.. لماذا؟.. ليس لدي القدرة على تحمل كل هذا العذاب..

قال عادل: إستجيري بالله يا رجاء.. إهدأي وحافظي على صحتك.. من أجل زوجك ومن أجلي.. سندس.. أنها تحتاج إليك. ثم أخذ الطفلة بين ذراعيه وقبلها ودفع بها إلى أحضاني.

أخذتها بين يديّ ودموعي تغرق دثارها. ألصقتها بصدري وشعرت بيديها الصغيرتين تعبثان بصدري وترتجفان. شعرت في تلك اللحظة بعواطفي كلها تتحول تجاهها. مسحت وجهي بطرف أصابعي وأنا أتتم وسط دموعي.

- الحمد لله.. الحمد لله على كل حال.

في اليوم الثالث لحضور عادل لزيارتي.. حضر ضابط برتبة لواء كان صديقاً لزوجي وحل مكانه، بعد استدعائه، ومعه المقدم خالد جارنا وبعض رجال الأمن. قاموا بالطواف على غرف المنزل وتسجيل بعض الملاحظات في أوراق رسمية. شعرت بأن المقدم خالد يرمقني بأسى حزين ولكنه لم يتحدث اليّ. جلست في كرسي جانبي ودموعي تنزل في هدوء ورباب وسامية زوجة خالد بجانبي تحاولان تهدئتي. إنتهى الإستلام الرسمي سريعاً. وخرج خالد بسرعة دون أن ينظر في وجهي.

بعد انتهاء الدوام الحكومي الرسمي جاء خالد - مرتدياً الملابس المدنية - صافحني في حرارة وتأثر مبدياً أسفه لما يحدث. وجلس يتناول الغذاء الذي أحضرته زوجته مع عادل.

خرج في العصر وجاء معه شرطيان حملا كل المنقولات والأمتعة الخاصة بنا ووضعاها في الشاحنة التي استأجرها خالد ثم ركب ابن اخت زوجي الذي كان في اجازة عارضة مع سائق الشاحنة بعد ان أعطاهم عادل مفتاح الشقة التي كانت مكتبه القديم. حيث كانت تسكن والدة سندس لوضع العفش والأثاث بها. خوفاً على صحة أمي حينما تفاجأ بدخول الشاحنة المحملة بالأمتعة دون وجودي أو وجود عادل.

وفي صباح اليوم التالي صعدت إلى سيارة عادل «اللاندكروزر»

الفخمة وأنا أحمل سندس الى صدري وسط بكاء الجيران والصديقات ووداعهن الحار. أصرت الطاهية حليمة على مرافقتنا لمساعدتي في تربية سندس وفي آخر لحظة قبل تحرك العربة شق لادو جموع النسوة. ووقف أمامي وهو يمسح دموعه محاولاً التماسك وقال

- سيدتي .. هل يمكن ان أذهب معكم أنا أيضاً؟

شددت على يده وأنا اقول وقد تأثرت كثيراً بوفائه..

- أهلاً بك.. تعال معنا يا لادو .. لقد أصبحت واحداً من الأسرة.

هرول الى الداخل ثم عاد يحمل شنطة «هاندباق» صغيرة تحوي ملابسه.

• ١١ •

وجد عاصم نفسه مضطراً الى استخراج شهادة ميلاد جديدة لسلمى ووضع إسمه مكان اسم الوالد.. بدلاً عن عادل وذلك حتى يستطيع إرفاقها في جواز سفري ومن ثم استخراج تأشيرة السفر للسعودية. كان غاضباً محنقاً وما كان يريد ذلك ابداً ولكن عادل طمأنه بأن هذا شيء صوري فقط لمجرد تسهيل استخراج تأشيرة الإقامة للطفلة المسكينة التي ليس لها أحد سواي يعتني بتربيتها.

كان وقتها قد وجد فرصة عمل طبيباً في مستشفى تخيلات العسكري بعد خروجه من الجيش وتحويله للمعاش. وتمكن أصدقاؤه بالسعودية من ارسال تأشيرة له. كان قد مضى على عمله سبعة أشهر عندما توفيت والدتي بعد مرض طويل لم يكن في استطاعتي أثناءه مرافقته. عندما جاء للعزاء فاجأنا عادل بأنه سيهاجر الى كندا ولذلك ينبغي عليّ أن اسافر مع زوجي حتى يكون مطمئناً علينا وافق عاصم على الفور ولكنه

تردد في اصطحاب سندس وقال ان القوانين لا تسمح بذلك.

لكن عادل رتب أمور إضافتها الى جواز سفري وبعد شهر واحد ارسل زوجي تأشيرة الإقامة لي ولإبنته سندس البالغة من العمر خمسة اعوام. فرح عادل فرحاً بالغاً وبدأ في إجراء ترتيبات سفره.

أصبح المنزل الكبير كئيباً .. بارداً.. ويكاد يكتم أنفاسي كانت ذكرى أحاديث عادل ونظرات أمي وذكرياتها تطاردني في كل غرف المنزل . استأجرت عمالاً وتم تخزين كل الأثاثات في الطابق الأول وغرفة الصالون وبقيت غرفتان جاء ابن اخت زوجي الأصغر بابكر الذي يعمل مهندساً بشركة كمبيوتر للسكن فيها.

وفي يوم سفري الى السعودية شعرت بأن اهل زوجي يرمقون سندس بنظرات كره حانقة وبدت الصغيرة متكدرة المزاج وكأنها أحست بمشاعر الكراهية من حولها.

قالت علوية أخت زوجي في صوت عالٍ وكأنها تتعمد أن تسمعها الطفلة:

- بنت الحرام هذه «كراعها حارة» من يوم أن جئت بها والكوارث تتوالى على رأسك.. لقد رحل الجميع.. بعضهم الى رحمة الله وبعضهم الى حيث لا يعلم أحد متى يعودون. إنها فأل شؤم عليك وعلى زوجك.

قاطعتها في جزع وانا اخفض صوتي:

- ياشيخة حرام عليك، إنها طفلة بريئة ولا ذنب لها في الظروف التي أحاطت بها.

- لاتغضبي مني أنا فقط أخاف عليك وعلى أخي من ان تلاحقكما لعنتها.. أبوها مجهول وأمها ماتت يوم ميلادها..

اهتزت مشاعري بعنف لحديثها.. قلت محاولة تغيير موضوع الحديث.

- سوف أتصل بكم حال وصولي نخيلات.. أرجوك لا تتركي شجيرات الحديقة تموت من الظمأ.. اوصيك بصفة خاصة.. بأشجار الليمون والجوافة .. ليس لي غيرك أوصيه على منزلي، بابكر لا يزال شاباً صغيراً ربما لن يكترث كثيراً بسقي الجنينة.

عانقتني بتأثر واضح وهي تعدني بأنها ستعمل بوصيتي ثم وضعت على جبين سندس قبلة باردة شعرت بقسوتها ولم يزعجني أن الصغيرة بادرت الى مسحها بظاهر كفها.

قابلنا زوجي في مطار جدة ثم سافرنا بالسيارة حتى نخيلات بعد أن ذهبنا في نفس اليوم لأداء شعائر العمرة كانت المرة الأولى التي أزور فيها مكة لم تفلح محاولات زوجي في أن اترك سندس مع احدى قريباتي بجدة..عند الذهاب لأداء شعائر الاعتمار.

كان المشهد رهيباً وشعرت بالخشوع التام وأنا أمام بيت الله أخذ زوجي بيد سندس أثناء الطواف والهرولة بين الصفا والمروة وبدت هي سعيدة في صحبته. وكنت أنا في قمة التأثر الشعوري الوجداني.

جلست بعد الصلاة وبعد أن فرغنا من أداء الشعائر على جانب الحرم الشريف، أخذت مصحفاً وجعلت أتلو أجزاء من القرآن الكريم. ترحمت لأبي الذي مات وأنا طفلة صغيرة. وبكيت كثيراً وأنا أترحم لأمي. دعوت لأخي عادل بالنجاح والستر في غربته.

في لحظة كبرق الصاعقة ومضت في ذهني ذكرى محمود . زجرت نفسي ولعنت الشيطان الذي يأبى الا أن يوسوس لي بالذكرى الخبيثة وأنا في هذا الموقف الطاهر..انهمرت الدموع من عيني بغزارة وأنا

أستغفر الله واستعيذ به من الشيطان الرجيم.. لكن صورة محمود طاردتني بإلحاح وشعرت بإنتفاضة قلبي الحزين المنكسر. أخذت المصحف وتلوت جزءاً كاملاً ثم جعلت أترحم عليه وأدعو له بالمغفرة والرحمة وبكيت كثيراً وأنا أدعو الله صادقة ان يرحمني ويزرع في قلبي نسيان حسرة عواطفي تجاه محمود ويسكن في قلبي محبة زوجي الذي هو كل ما تبقى لي من الدنيا خصوصاً بعد تقبله لوجود ستمس في حياتنا.

عند وصولنا الى نخيلات أدهشتني مظاهر التخلف الواضحة على العمران رغم وجود بعض البنايات الحديثة التي لازالت تحت التأسيس. كانت بساتين النخيل تبدو كالأحراش في غير تنسيق وكان بعض السكان من الرجال يرتدون الملابس التقليدية ويتدثرون بالملاءات الملونة ذات الخطوط العريضة ويتمنطق كل منهم حزاماً ضم به خنجراً مقوساً ومرصعاً بطريقة جميلة، بينما السيدات يرتدين العباءات ويغطين وجوههن تماماً بالطرح السوداء.. الثقيلة.

قال زوجي: منذ الغد سأشتري لك عباءة وستلبسين الحجاب وتغطين وجهك.

قلت: أخشى ألا أستطيع الرؤية وأضلّ الطريق الى المنزل اذا خرجت.

ضحك ساخراً وقال:

- والى أين ستخرجين .. السوق هنا ممنوع للسيدات!!

لكن ما ضايقني حقاً بشدة هو المنزل، كان ضيقاً.. رغماً مكوناً من ثلاث غرف وصالة والمرافق الضرورية.

قلت في دهشة..

- اذا كان هذا هو منزل الطبيب.. فكيف بمنازل الموظفين الأقل درجة!

كانت أيام وجودنا في تخيلات أياماً عسيرة وشاقة. وحياتنا رتيبة جافة.. ما كنت لأحتمل العيش فيها لولا أن سندس بوجودها معي خففت كثيراً من نفسي مشاعر الغربة والوحشة.

لاحظت ان أهل البلد يتفادون الإختلاط بنا ولا يوجد مهاجرين في المدينة.. سوى الممرضين وبعض الموظفين الذين يسكنون بعيداً عنا.

زوجي يعمل صباحاً ومساء، ويعود بالليل منهكاً متعباً وفي أغلب الأحوال يكون قد تناول طعامه في المستشفى. وبمرور الزمن شعرت إننا قد تباعدنا كثيراً عن بعضنا البعض، قد يمر اليوم بطوله دون أن نتبادل حديثاً سوى بضع كلمات تقريرية لابد من قولها. ظننت أنه يغار من سندس. كرست له وقتاً أكبر تزينت وتعطرت وحاولت استثارة إهتمامه بكل الوسائل الأنثوية لكنني فشلت فعلياً في اجتذابه وأضحت علاقتي به تحكمها الضرورة والواجب والعرض الإجتماعي الرسمي لكننا أمام الجميع زوجان سعيدان غارقان في بحور الحب.. لم يجرح شعوري يوماً.. ولم يقصر في حق من حقوقي مادياً ولا جسدياً غير أني كنت بإحساس المرأة أعرف أنه بعيد جداً عني بعواطفه.

علاقته بسندس كانت عادية لكنها باردة وفاترة في بعض الحالات وعندما انبهه لذلك يتعلل بالإرهاق الشديد في العمل بالمستشفى.

نظر اليها ذات يوم طويلاً وهي تكتب واجباتها المدرسية ثم قال:

– هل تعتقدين انها عندما تكبر ستصبح مثل ابنتنا؟

– طبعاً.. طبعاً.. إن الوالد هو الذي يقوم بالتربية والرعاية.

هزّ عاصم رأسه بالموافقة غير أنه لم يتحدث كثيراً ودخل مبكراً لينام متحججاً بالعمل في الصباح الباكر.

وبعد أسبوعين تقريباً سافر عاصم سريعاً الى الخرطوم إثر برقية عاجلة من أخيه تخبره بمرض والدته ودخولها المستشفى .. بينما لم أستطع أنا السفر معه بسبب مدرسة شادي.

«١٣»

عاصم

عندما وصلتني برقية من اخي عمار يخبرني فيها بأن والدتي في حالة صحية خطرة وأنها طريحة الفراش بالمستشفى شعرت بالجزع وتأنيب الضمير. لقد مرّ زمن طويل دون أن أذهب في إجازة للسودان لرؤية أمي وأفراد أسرتي.

لم يكن ممكناً في ذلك الوقت لرجاء مرافقتي لأن الوقت كان منتصف السنة الدراسية. ولا يمكن ترك سندس وحدها أو إجازتها من المدرسة. سافرت وحدي والندم والقلق يعصفان بي وأنا أخشى أن أصل بعد فوات الأوان.

إستقبلني إخوتي عمار وعلي في المطار وطمأنوني على صحة الوالدة غير أنها كانت لا تزال في غرفة العناية المكثفة بمستشفى الخرطوم. عانقتني أختي علوية وهي تبكي. كانت والدتي مسجاة في السرير الأبيض وقد تدلى من تحتها أنبوب «القسطرة» وتعلق فوق ذراعها

«مصل الدرب» بيضا كمامة بيضاء شفافة تغطي أنفها وفمها – لم تكن تتحرك ولكن عينيها فقط كانتا تدوران بمحبة فوق وجوه ابنائها وقد التفوا حولها – رفعت يدها لتحييني. انهمرت دموعي وانا أقبل يدها ورأسها وأنادي عليها بصوت متقطع: سامحيني يا أمي.. أمنحيني عفوك ورضاك.

بعد خمسة أيام من حضوري كانت أمي تفتح عينيها وتتحدث بصعوبة وتثاقل.. كنا جميعا حولها.. همست شيئاً فأومأ لي عمار بالإقتراب منها، قلت في لهفة : نعم يا أمي؟؟.

قالت بصعوبة وبصوت يكاد يكون مسموعاً بصعوبة:

– عاصم.. عافية منك وراضية عليك.. تزوج سمية بنت خالتك عسى الله أن يهبك ذرية.

قلت في جزع دون أن أعي كلماتي:

– حاضر يا امي.. حاضر إرتاحي أنت ولا ترهقي نفسك بالحديث أو التفكير.

إبتسمت في ضعف.. انفرجت أساريرها في ابتسامة واهنة ثم حركت إصبعها السبابة ثلاث مرات واغمضت عينيها ودخلت في غيبوبة لم تفق منها أبداً.

كانت أيام مرض ووفاة والدتي مريرة وقاسية. كانت والدتي إمرأة قوية الشخصية، عالية الهمة، ولها الباع الطولى في تربيتنا. والدي رحمه الله كان دائماً محباً متسامحاً لا يرفض لنا طلباً.. وهو واسطة الخير بيننا وبينها عندما ترفض ذهابنا إلى السينما أو خروجنا للمذاكرة الجماعية مع اصدقائنا.. كانت فيها صرامة معلمة إبتدائي قديمة وللحق

فإنها تدرجت حتى وصلت وظيفة ناظرة مدرسة ثم تركت التدريس وتفرغت لتربيتنا أنا وعلي وعمار وعثمان وأختي علوية. تزوجت علوية في منتصف دراستها الجامعية. وانجبت فاحتضنت أمي أبناءها لتتفرغ علوية كلياً للدراسة ثم العمل. عاشت بيتنا أيضاً سمية ابنة خالتي ربا التي تصغر أمي في العمر والتي توفيت أثناء الولادة إثر عملية قيصرية فاحتضنتها أمي ورفضت رفضاً باتاً تسليمها لأبيها بعد زواجه من بنت عمه. ويبدو أن العروس الجديدة لم تكن تريد أن ترهق نفسها بمسئوليات تربية طفلة غريبة عنها فأقنعت زوجها بتركها لخالتها لتربيتها وهكذا ظلت سمية في بيتنا وشبت بيتنا كأخت صغرى وقد رفض والدي أخذ مصاريف إعاشتها من أبيها وان كان والدها قد ظل مواظباً على زيارتنا بين وقت وآخر حين يحضر إلى الخرطوم من مكان عمله في القاشر. لم تكن سمية قد سمعت ما قالته أمي وهي في فراش احتضارها .. لم يخبرها أحد من اخوتي ولم يكن الوقت مناسباً لعلوية لقول أي كلام.

كان انهيار سمية كاملاً حين وفاة امي ظلت خارج الغرفة التي تنام فيها أمي بالمستشفى تبكي طوال الوقت ورفضت الذهاب إلى المنزل، وأغمي عليها ساعة أن علمت بموتها.. كانت أمي هي القلب الرحيم الذي احتضنها وعمل على حمايتها منذ أن فتحت عينيها على الحياة، ودائماً تقف في صفها وتحميها حتى من علي أخي الأصغر الذي يماثلها في العمر حين يحدث بينهم شغب طفولي أخوي بريء.

في اليوم الثالث بعد مراسيم الدفن قرر كبار رجال الأسرة أن ينفض مجلس العزاء، وكان ذلك يعني ان يعود الأهل والجيران الذين ظلوا يجلسون معنا طوال ساعات اليوم وحتى ساعة متأخرة من الليل الى

أعمالهم ومشاغلهم اليومية. كان الأهل والأصدقاء والجيران يحضرون الأكل والشاي والقهوة كل يوم ويبقون معنا لمواساتنا وتخفيف وقع المصاب الأليم.

ظللت دائماً محور الإهتمام بصفتي الإبن الأكبر ولأنني كنت منذ سفري بعد خروجي من المعتقل وبعد محاكمتي وتبرئتي من تهمة المشاركة في الإنقلاب الفاشل خارج السودان. إلتفّ حولي أصدقائي ورفقاء السلاح وزملاء الدراسة وكانت حقاً أياماً حميمية صادقة الإخاء.

بعد أن انقضى فراش المأتم عاد للبيت هدوءه. بعد كل تلك الضوضاء التي كانت تحيط به وخيّم صمت ثقيل الوطأة على المنزل الذي يخلو لأول مرة منذ أن وعينا الحياة من صوت الوالدة بكل درجاته ومنحنيات عواطفه الجياشة. كان يخيّل إليّ أحياناً أن صوتها يخترق مسامعي... آمراً بلهجة متشددة مسيطرة على مشاكلنا في حنان، مناقشاً في محبة أمومية لا مثيل لها. أو مادحاً بصوت رخيم جميل لشمائل الرسول الكريم عليه السلام أثناء عملها لقهوتها اليومية.

كنت قد رخصت من عملي اجازة لأسبوعين مضى منهما أسبوع واحد ثقيل مفعم بالألم وكان عليّ القيام بعد انتهاء العزاء بمهمة ثقيلة محزنة وهي حمل ملابس ومتعلقات الوالدة الشخصية – التي قامت جارتنا حميدة بجمعها من غرفتها –وأخذها الى أحد المساجد لتوزيعها على الفقراء والمحتاجين. وضع أخي عثمان الحقائب الكثيرة المملئة بالملابس والثياب والأحذية في خلفية عربته البوكس «دبل كابين». إستعصى عليه إغلاق إحدى الحقائب... حاول الضغط عليها وإغلاقها ولكنها من كثرة الثياب التي تكدست داخلها أبت إلا أن تفغر فاها. ربما حزناً

وتحسراً على صاحبتها.

رفع عثمان رأسه نحوي كانت عينيه دامعتين وناولني مفتاح السيارة ودخل مسرعاً الى المنزل.

كانت المهمة أصعب بكثير مما تصورته. عند وصولي إلى المسجد أوقفت السيارة وحملت الحقيبة التي لم يستطع عثمان إغلاقها وكان الموقف فوق احتمالي لأن رائحة الوالدة بخصوصيتها وعطرها المخلوط برائحة الصندل ظلت تنبعث حيةً قويةً من خلال ملابسها. شعرت بطوفان من المشاعر الحارة يلهبني ويدفع بدموع ساخنة غزيرة تغرق وجهي، ووسط غمامة الدمع أشرت الى بعض الشباب الملتحين الذين يقفون أمام باب المسجد برقيونتي، رجوتهم أن يحملوا الحقائب إلى داخل المسجد ويقوموا بتوزيعها على المحتاجين.

قدت السيارة وعدت الى المنزل إنساناً محطماً حزيناً بائساً وقلت في نفسي ان أمي لن تموت أبداً ما دمت أكنّ لها هذه العاطفة الجياشة التي يحملها قلبي ما بقي فيه نبض.

وفي لحظة تفكير عاصف برقت في ذهني فجأة مسألة عدم إنجابي.. من سيبكي عليّ بمثل هذه الحرارة إذا أنا مت؟ من سيحمل قلبه جيشاناً هادراً من الحزن والفقد والعاطفة الصادقة إذا توقف قلبي فجأة عن الحياة!! ان عاطفة البنوة فيها قدر كبير من الإحساس بالإنتماء.. من التعلق بالذات الأولى.. إن الإبن يشعر انه جزء حميم من والديه مهما كبر ومهما بعدوا عن عينيه. قد تكون العاطفة الموجودة بين الأشقاء أو بين الزوجين قوية وصادقة ولكنها تبقى عواطفاً حميمة في حدود إستقلالية الفرد أما الإحساس بالبنوة والأبوة والأمومة فإن العاطفة فيها

تكون بمثابة الوشيجة والعروة التي لا يمكن إنفصامها مهما كانت إستقلالية الشخصية.

ان الحبل السري يظل يربطنا بأمهاتنا حتى بعد انقطاعه وبره مكانه ، نظل أبداً في حنين إلى حميمية الرحم ودفئه كلما اشتدت علينا الأزمات أو تكاثر من حولنا جفاف الأزمنة والدروب.

عدت الى المنزل محطماً.. حزيناً متعباً .. طفلاً صغيراً يفتقد صدر أمه وثدييها وابتسامها وصوتها الحبيب الذي يطوقه بألبسة الحنان. كان الصمت يخيمُ على المنزل بكآبة شديدة والصداع يفتك برأسي. فكرت أن أذهب الى المطبخ وأطلب فنجان قهوة من أختي علوية. دلفت إلى الصالة التي تؤدي الى المطبخ كان يوجد فيها مقعد مستطيل ملوّن مصنوع من الزوي وسلك التملية وقد اصطف فوقه عشرات من الصحون والأواني المختلفة وعلى الأرض مجموعات من القدور وأواني الطبخ التي كانت تستعمل أثناء مراسيم العزاء. وقفت في عتبة الباب.. كانت سمية هناك تحرك شيئاً على «البوتجاز» لم تكن قد أحست بوجودي وهي تواصل عملها. وقفت اتأملها للحظات.. شعرها الكثيف الأسود.. قامتها واستدارة ردفيها تحت الإسكيرت الأسود والبلوزة البيضاء والطرحة الملقاة على كتفيها. كانت قد كبرت كثيراً منذ رؤيتي لها آخر مرة قبل سفري وامتلأ جسدها بأنوثة مترعة وكان الشبه الكبير بين ملامح أمي وملامح سمية مثاراً للتعليقات في الأسرة.

عن والدتي أخذت جمال عينيها ورموشها وحاجبيها الكثيفين وابتسامتها الخانية التي تضفي على استدارة وجهها القمحي جمالاً شامخاً. كنت واقفاً في مكاني مذهولاً واجف القلب وأنا أرى قطعة

عزيزة من من نسج أمي التي لن أراها ثانية أمامي.

اطفأت سمية شعلة البوتجاز واستدارت أمامها ففوجئت بوجودي.. لأول مرة نلتقي وجهاً لوجه بعد غياب الراحلة الحبيبة. واجهتها بعينين منكسرتين حزينتين وقلبي يدق في عنف وكأنه يستجير بها من الحزن الذي يعصف به. وبدأت الدموع تهطل من عينيها بغزارة. دخلت علوية في تلك اللحظة وأخذت تبكي بصوت عالٍ غطت سمية وجهها بكفيها وهي تنتحب. كانت لاتزال أمامي.. حبيبة أمي الأثيرة.. وانبثق الصوت متعباً متهدجاً يردد صدىً.. داوياً.. يملأ ذاكرتي المنهكة.. ملحاً على كياني كله قائلاً في لهجة عاتبة متوسلة..

تزوج سمية يا عاصم.. تزوج سمية بنت خالتك يا عاصم!!.

وسمية امامي بكل فتنتها وجمالها وحزنها وحسرتها على فراق أمي.

لم أدر ما أنا فاعل.. تقدمت منها بسرعة، أخذتها بين أحضاني ألصقتها بصدري وهي تنشج بالبكاء.. اختلط دمعي بدمعها وسمعت قلبها يدق في عنف وكأنه يستجير بي وهي تضع رأسها على كتفي وأنا بين دموعي أربّت على شعرها وظهرها وأهدهد عبراتها. ثوانٍ مرت وكأنها عمرٌ كامل ثم تحركت علوية اختي لتبعدني عن سمية وتأخذها في أحضانها. وبدأت الاثنتان في النواح وتعديد مآثر المرحومة وهما تنتحبان وتتحسران على فقدانها. وخرجت أنا من المكان مهرولاً باكياً وصوت سمية الحزين يأتيني مولولاً متكسراً : آه يا أمي.. لمن تتركيني من بعدك.. آه يا امي تعالي وخذيني معك لن استطيع الحياة بدونك.

«١٣»

تفاديت تماماً الإنفراد بسمية أو النظر في عينيها حين نتواجد وسط الآخرين هي أيضاً كانت تطاطئ عينيها في أسى كلما التقينا صدفة في الحوش وكأنها تداري حزنها ودموعها عني رحمةً بي.. وقبيل موعد سفري بيومين زارنا والد سمية وزوجته. كان يحمل طفلاً في الثالثة من العمر تقريباً بينما زوجته تبدو حبلى على وشك الولادة وهي امرأة تعتقد أن قيمة وجودها في الحياة تعتمد على انجابها أكبر عدد ممكن من الأطفال كما علمت. قال عبدالرازق والد سمية:

- الحمد لله على كل حال.. كانت الله يرحمها أماً ثانية لسمية ولم أكن أستطيع كسر خاطرها وأخذ البنت منها وأنا اعلم مدى تعلقها بها رغم حاجتي إليها لمساعدتنا في تربية إخوتها الصغار.. كنت مطمئناً على حسن رعاية المرحومة لها..

ثم تنحنح كثيراً وكأنه يجد حرجاً فيما سيقوله وقال بعد تردد:

- لكن الآن انا لا أستطيع أن أتركها.. علوية ستذهب إلى بيتها بعد

رفع «فراش البكاء» وأنتم.. ما شاء الله عليكم كلكم شباب بالغون لسن النضج.

رد علي بحدة:

- ما هذا ياعمي؟! سمية طول عمرها مثل أختنا تماماً ولن يغير موت أمي من هذا الوضع.

قال متجهماً:

- أعلم هذا يا ولدي ولكن الشرع والأصول تقول غير هذا.

قال عثمان مغضباً:

- هل نفهم من هذا انك ستأخذ سمية منا لأنك غير آمن عليها معنا؟

قال عبدالرازق مسرعاً:

- أعوذ بالله من وسواس الشيطان يا ولدي أنا أعلم مدى محبتكم لسمية وحبها لكم.. ولكنني أخاف عليها وعليكم من حديث الناس الذي لا يرحم.. كيف تبقى فتاة مثلها وحدها معكم؟ ثم انني فعلاً أحتاج إليها لمعاونة زوجتي في تربية ابنائي أخوانها. لماذا انت ساكت ياعاصم.. انت الكبير العارف قل شيئاً لإخوتك.. قل لهم أن الحق في جانبي!!

كنت صامتاً طوال فترة المناقشة.. أنظر اليهم واجماً في بلاهة حتى عندما احتد الجدل بينهم وارتفعت أصواتهم.. نظر إليّ متوسلاً يستجير بي ولما لاحظ صمتي قال في حدة:

- أليس الحق معي يا عاصم ؟ اليس من حقي أن آخذ إبنتي لتعيش معي؟!

تبادلت نظرة طويلة مع عمي الذي يجلس بجواري والذي التزم الصمت

هو الآخر.

وقلت:

- الحقيقة أنه.. في الحقيقة أنني..

ونظرت الى عمي مستنجداً فابتسم يشجعني. قلت بسرعة.

- الحقيقة انني .. سأتزوج سمية . سأعقد قراني عليها قبل أن أسافر.. وهذه وصية المرحومة والدتي قبل وفاتها...

وبالرغم من أنهم جميعاً كانوا حاضرين حين ترجتني أمي أن أتزوج سمية إلا أن السرعة التي أتخذت بها قراري.. فاجأتهم. نظر إلينا والد سمية في دهشة وقد ارتسمت الفرحة بجلاء على تقاطيع وجهه.

قال عمي:

- الحقيقة ان المرحومة في المستشفى قبل أن تدخل في غيبوبتها الأخيرة أوصت بأن يتزوج عاصم من سمية وعسى الله أن يرزقه منها ولداً أو بنتاً تسميها.. على اسم الحاجة.

كانت فرحة والد سمية لا توصف أحسست بالفرحة أيضاً في قلوب إخوتي وعمي رغم الموقف الحزين الذي يطوقنا.

قال عمي:

- غداً الجمعة.. إن شاء الله بعد الصلاة نحضر المأذون ونعقد لك على سمية لتكون زوجتك شرعياً قبل سفرك..

وجاء الرجال بعد صلاة الظهر الى منزلنا تناولوا الغداء عندنا وبعد صلاة العصر أحضر عمي المأذون وتم عقد قراني على سمية. أطلق والد سمية ثلاثة أعيرة نارية في الهواء إيذاناً بإتمام الزواج الشرعي وبدلاً من انطلاق الزغاريد بدأت النسوة في البكاء.. كان عددهن قليلاً لا يتجاوز

الجارات مع علوية وعصاتي وسمية العروس وزوجة أبيها. وتفرق الجميع بعد ذلك واعتكفت سمية في غرفتها حائرة ما بين حزنها على أمها التي لن تعوضها أبداً وبين فرحة زواجها المبتورة.

«١٤»

لاحظت رجاء بعد حضور عاصم من الخرطوم انه يبدو دائماً مشغولاً ومتباعداً عنها. ظنت أن الأمر يعود إلى حزنه على والدته. حاولت مواساته والترفيه عنه وقد تذكرت الأيام العصيبة التي مرت عليها بعد وفاة والدتها.

لكنه بقي صامتاً وخيل اليها انه ارتبك عندما سألته عن أحوال أخواته وعلوية وسمية.. وأنه تردد قليلاً وكأنه يريد أن يقول شيئاً ثم تراجع وكرر حديثه.

- بخير.. الجميع هناك بخير.

أما عاصم فقد كان حائراً بين إخبارها وإخفاء الخبر الذي لن يبقى كثيراً في السر عنها. كان موقفه حرجاً خصوصاً بعد محادثته مع علوية أخته وحديثها عن الحزن العميق الذي تعيش فيه سمية وانها ظلت حبيسة غرفتها ورفضت الذهاب إلى عملها رغم كل المحاولات. كانت سمية قد أكملت دراستها الثانوية ثم التحقت بمعهد السكرتارية لمدة

ستين وكانت تعمل في مكتب الشركة «شركة الوادي» بشارع الجمهورية الذي كان يملكه عادل شقيق رجاء ، ولما هاجر عادل الى كندا عملت مع صديقه اللذي اشترى المكتب.

كانت رجاء مشغولة لإقتراب موعد امتحانات سندس الذي يسبق الإجازة السنوية ولم تلاحظ انشغال عاصم وسفره عدة مرات الى الرياض بينما كان يعمل على استكمال اجراءات استقدام زوجته سمية وعمل التأشيرة لها.

كان محتاراً في كيفية إيصال الخبر الى زوجته رجاء.. ولكنه أيضاً.. يذكر بالكثير من الحزن ليلة عرسه الأولى والبتيمة مع سمية. فقد أصرت عمته على أن يدخل عليها في خلوة شرعية حتى لا يكون عقد الزواج باطلاً.. تردد هو، وبكت سمية وعمته تقول بصوت عال..

- لا تغضبا المرحومة عليكما ولا يزال قبرها ندياً.. إن هذا لا يرضيها ولا يرضي الله.

ودخلت عليه النسوة يزففن إليه سمية وقد ألبسنها أحد فساتينها القديمة وعيناها متورمتان من شدة البكاء.

جلس في السرير الحديد الموجود بغرفته القديمة وقد فرشت عليه ملاية ملاءة جديدة. نهض مرحباً وشاكراً النسوة وهن يرددن «مبروك .. مبروك» ، «ان شاء الله ربنا يسعدك ويرزقك ويديك منها أولاد الحلال».

جلست على الكرسي الوحيد الموجود في الغرفة حال ان خرجت النساء وأغلقن الباب وراءهن. كان شعرها قد تهدل كثيفاً حالكاً على وجهها الحزين والدموع تنزل مدراراً على خديها. نهض من مكانه ومد يده إليها

وأجلسها بجانبه في السرير.

قال بعد لحظة صمت: سمية.. إذا كنت لا تريدين هذا الزواج فأنا على استعداد لأن اتنازل عنك بالرغم من تمسكي بك.. انني حقاً أريدك ولكن اذا كنت أنت لا تريديني فإنني سأتركك..

قالت وسط دموعها وحزنها..

-ستتركني .. لمن؟! لمن تتركني؟!

واخذت تبكي وهي ترتجف.. أخذها في أحضانه وحاول أن يهدئها وهو يعدها بأنه سيعمل كل ما في وسعه لإسعادها وانه لن يتخلى عنها أبداً.. وانه سيعوضها عن كآبة ليلة عرسها. ونامت في أحضانه دون أن يقترب منها مقاربة الزوج لزوجته كطفلةٍ بريئة تتوسد كتف أخيها الأكبر!!

كانت رجاء لا تشك أبداً في حب عاصم لها حباً جارفاً وكان يراودها - دائماً - إحساس بالندم على انها قد عرفت يوماً في حياتها شخصاً غيره تسلل الى قلبها غصباً عن إرادتها وتحاول دائماً التكفير عن ذلك الإحساس الذي لا حيلة لها فيه بالتفاني في خدمة زوجها وبيتها وكانت قد وصلت الى قناعة انها قد عوضته بوجود سندس في حياتهما عن أبوته المفقودة لكن شروده المتواصل وسفره الى الرياض على فترات متقاربة أثار شكوكها وأوهامها وان كانت هذه الشكوك والأوهام لم تكن أبداً ترقى الى مستوى تصور ما حدث حقيقة. ظنت أن الأمر ربما يكون مشكلة عائلية أو متاعب مادية خصوصاً ان هذه الحالة قد حدثت له بعد عودته من السودان. لكنها مضت في أعمالها الروتينة المنزلية ومراجعة دروس سندس المدرسية ولم يكن يخفف من وقع الحياة القاسية عليها

سوى الكتابة.

بدأت تكتب كثيراً .. قصصاً قصيرة ومقالات ومتابعات ثقافية لترسل بها الى صحف لها مكانتها في المجتمع المحلي والعربي.. صحيفة عكاظ وصحيفة المدينة والحياة والشرق الأوسط وأخبار الأدب المصرية وهكذا أصبح إسمها معروفاً بين أوساط المثقفين. كانت أيضا قد بدأت في كتابة رواية جديدة لكن التسلسل الحدثي صعب عليها وطيف محمود يتسلل دائماً مشاغباً ومعلقاً على ما بين السطور مما يجعلها تتوقف مباشرةً عن الكتابة في محاولة يائسة لنسيانه.

في ذلك اليوم كانت تريد جمع الملابس لغسلها. كان الوقت عصراً وهي عادةً تقوم بتأدية واجباتها المنزلية في الصباح والتفرغ لزوجها وسندس بعد حضورهما لكنها في ذلك اليوم بقيت تكتب طوال ساعات الصباح في مقال ثقافي ثم خرجت الى مركز البريد وأرسلت المقال إلى صحيفة الحياة اللندنية لنشره في صفحة "ثقافة وفنون". كانت قد قرأت في مقال سابق عن هشاشة الثقافة المعاصرة وأرجع صاحب المقال الى أن دخول القنوات الفضائية هو السبب المباشر عن ذلك. لم تتفق مع الكاتب وكتبت مقالاً طويلاً توضح فيه حسنات البث الفضائي وهي تستشهد ببعض البرامج الثقافية التي شاهدتها في قنوات دولية متعددة يقدم لها كبار المفكرين والأدباء، وكان في رأيها انه وبرغم أهمية القراءة فإن هناك روافد أخرى تساعد في إثراء المخيلة الثقافية.

أرجأت كل أعمال المنزل عدا الطبخ في ذلك اليوم حتى انتهت من كتابة مقالها. وجاء زوجها من عمله متأخراً كما هي عادته في الأيام الأخيرة. قال انه تناول غداءاً خفيفاً في المستشفى إرتدى ملابسه المنزلية

ودخل مباشرة لينام، سألته عن الصحف، قال انه نسيها في عربته وخرج ليحضرها. تابعت عملها في جمع الملابس المتسخة لغسلها. وقفت أمام شماعة الملابس.. تناولت بنطال زوجها الذي كان يرتديه صباحاً في العمل وبتلقائية شديدة وكما تفعل دوماً أدخلت يدها في جيوب البنطال لتخرج منه الأوراق وحافظة النقود وتضعها في الكمودينو الموجود قرب السرير. خشخشت كمشة الأوراق والأشياء التي في الجيب وكما كانت تفعل عادة، ثم تنبهت فجأة الى وجود مظروف كبير يحتوي على جواز سفر فتحت أوراقه.. كان لسمية!! تطلعت الى صورة سمية وهي تبتسم في دهشة وتعجبت لماذا لم يخبرها زوجها بأنه أحضر معه جواز سمية!! ثم مضت ببراءة شديدة تقرأ صفحاته تقلب بقية أوراقه وتتفحصها. فتحت ورقة مطوية بعناية بداخله وبدأت قراءتها. واحست كأن صاعقة قد حطت على يافوخها.. كأن سيفاً قاطعاً قد شطرها إلى نصفين وكانت تلك الورقة وثيقة زواج عاصم زوجها من سمية.

أسرعت في ارتباك تلملم الأوراق. وضعتها مكانها في جيب البنطال ثم علقته في مكانه وخرجت من الغرفة. كانت سندس نائمة في غرفتها. دخلت إلى غرفة الضيوف وتمددت على السرير في شبه إغماءة وعيونها جامدة معلقة بالسقف. قال زوجها وقد حضر يحمل إليها الصحف اليومية.

- ماذا بك.. هل عاودك الصداع؟

كان جسدها كله يرتجف وهي تحاول التماسك.. قالت بعد جهد..

-كلا .. لكنني أشعر بالبرد.. اعطني دثاراً..

حمل اليها الغطاء الصوفي.. فرده ودثرها به جيداً ثم نظر إليها في

قلق وهو يقول:

- هل أحضر لك كوب شاي ساخن؟

أشارت بيدها علامة الرفض وغطت وجهها بالغطاء. الثقيل وهي تستدير نحو الحائط.

دخل عاصم إلى غرفة النوم مرهقاً تعباً من جراء رحلته الطويلة إلى الرياض ومن الوهن الذهني الذي يكابده في صراعه مع نفسه عن كيفية إيصال نبأ زواجه من سمية الى زوجته لكنه كان أيضا قلقاً ومحتاراً في التغيير المفاجيء الذي ألم بزوجته. لاح في خاطره فجأة ما أزعجه بشدة.

نظر في جزع الى حيث شجب بنطاله فوق علاقة الملابس خلف الباب واطمأن الى وجوده كما هو وما هي سوى دقائق إلا وكان قد ألقى بجسده على السرير وراح في نوم عميق.

في صبيحة اليوم التالي استيقظ متأخراً. كانت سندس قد ذهبت للمدرسة ورجاء على غير عادتها لا تزال نائمة في الغرفة الأخرى.

دخل عليها قائلاً في محاولة لإيقاظها..

- صباح الخير .. كيف حالك اليوم؟

تظاهرت بالإستغراق في النوم ولم ترد عليه..

وقف برهة يرمق تنفسها المنتظم، كانت جميلة في نومها.. وجهها قمر عسلي اللون، شعرها الأثيث المتمرد يتساقط كتلاً على وجهها وعنقها.. رموش عينيها الكثيفة تشكل حاجزاً ساتراً ما بين ثنا. عينيها الأنثوي الصاخب وبين سحر قوة شخصيتها الذي تغلفه بذكائها الساخر المخيف.

مدّ يده ليحاول إيقاظها، لكنه عدل عن ذلك خشية إزعاجها.

أعدّ لنفسه كأساً من الشاي بالحليب، حمله نحو الغرفة وضعه على

الكمودينو المجاور للسرير ثم بدأ يرتدي ملابسه، ارتدى القميص الأبيض ثم أخذ البنطال من الشجب. أوعز اليه هاجس حذر بأن يدخل يده في جيب البنطال ويتحسس الأوراق التي فيه قبل أن يلبسه أدخل يده... أخرج المظروف الذي يحتوى على جواز سفر سمية. فتحه، نظر إلى الصورة ثم قلب أوراقه. فجأة اكتشف أن وثيقة الزواج ليست موجودة بداخله. كان متأكداً انه طواها بعناية فائقة وجعلها وسط أوراق جواز السفر. في هلع شديد أدخل يده في جيبه مرة أخرى وأخرج محتوياته. كانت الورقة التي طواها بعناية تامة موجودة وسط الأوراق الأخرى مكرمشة بعض الشيء!!

لابد أن يداً أخرى قد عبثت بها.

هل يمكن أن تكون رجاء؟!!

لا.. مستحيل!!

قال لنفسه وقد شعر بأن مطارق من الحديد الساخن بدأت تضربه في قمة رأسه.

مستحيل أن تكون رجاء، قد رأت وثيقة زواجه من سمية ثم دستها في هدوء مرة أخرى في جيبه دون أن تسأله وهو الذي يعرفها.. قرأ إستراتيجة هائجة شرسة في حالة غضبها.

هل هذا يفسر اضطرابها وصداعها المفاجيء الذي حيره بالأمس؟!

هبط على السرير بثقله كله وهو يمسك رأسه بكلتا يديه عاجزاً عن التفكير وهو يشعر بالخدر يتغلغل في أطرافه.

كان لا يزال جالساً فوق السرير ممسكاً بالبنطال في يده محتاراً وقد تملت أطرافه وتهدل جسمه في بلاهة العاجز.. ها هي اللحظة التي كان

يخشاها ويخاف منها قد جاءته على غير انتظار فكيف سيتصرف؟!

أخذ يدعك جبينه بيده محاولاً التجلد مستجمعاً بكل قوته وصرامته في مواجهة المواقف الصعبة..

أكمل ارتداء ملابسه ثم خرج نحو زوجته وهو في حال يرثى لها.

لا تزال راقدة وقد غطت وجهها وجسدها كله بالدثار الصوفي. كان تنفسه ثقيلاً وكأن إزميلاً من الزيت قد اندلق داخل قفصه الصدري وهي أمامه تتمدد في سكون مخيف.

- رجاء..

قالها متردداً وقد بدا صوته متحشرجاً وقلبه يدق طبولاً عنيفة تكاد تزهق أنفاسه.

- رجاء أرجوك... أريد أن أتحدث معك

كشفت وجهها واستدارت إليه. فتحت عينيها على اتساعهما وهي تحاول أن تدعي البراءة حتى ترى هل سيخبرها بنبأ زواجه أم انه سيظل يخفيه عنها.

لكنها عندما رأت وجهه المربد وعينيه الجاحظتين وارتجاف شفتيه وأصابعه أيقنت انه قد عرف بأنها قد اكتشفت الأمر.

نهضت جالسة فوق السرير بحركة مفاجئة. ألصقت ظهرها بالحائط ومدت ساقيها أمامها بعد ان ألقت بالغطاء جانباً.

جلس في السرير المقابل وهي أمامه في سكونها تنظر اليه بكل جبروتها المخيف.

- رجاء.. لابد انك ستقدرين موقفي.. أنا لم أتزوج سمية لأنني..

حدقت كنمرة متوحشة وأطلقت نظراتها الشرسة في وجهه.

- أسكت..لا تقل كلمة واحدة..

قال وصوته يترنح بحشرجة الإحتضار..

- أرجوك إستمعي إليّ ثم افعلي بي ما تشائين.

- لن أسمعك.. ولن أصدق كلمة واحدة من حديثك.. أيها الخائن. كيف استطعت أن تعاشرني طوال الفترة السابقة وأنت قد اخفيت عني زواجك بأخرى.. كنت تتظاهر امامي بأنك..

ثم تهدج صوتها وهي تقول..

- قل لي.. ماذا تخفي عني أيضا أيها الكاذب المخادع؟

كان الإنفعال قد بلغ منها مبلغاً عظيماً. أخذ جسدها يرتعش وأسنانها تصطك فوق وجهها المبلل بالدموع. اقترب منها محاولاً تهدئتها.

- رجاء انا آسف لم اقصد إيذائك .. أو طعن مشاعرك..

أمسك بها كي لا تبتعد عنه. فقرت أمامه وهي تقول.

- لا تلمسني بيدك.. إبتعد عني!

- طيب.. حاضر..

قال بإنكسار واضح..

- سوف أبتعد عنك.. فقط إمنحيني.. أرجوك.

- لن أمنحك أبداً.. حتى تطلقني!! طلقني. الآن... الآن .. كن رجلاً وطلقني كما ادعيت الرجولة وتزوجت سمية في السر!!

تخلص من قبضتها بصعوبة بالغة وهي تمسك بتلابيبه وتشدد قبضتها على ياقة قميصه وتصرخ في هستيريا..

-طلقني.. طلقني.

هرب من أمامها وخرج بعد ان صفق الباب خلفه بقوة.

حين عودته إلى المنزل قابلته سندس عند الباب وهي تقول:

- ماما مريضة جداً لم تأكل ولا تتحدث معي تقول أن صداعاً رهيباً يفتك برأسها. خذها الى الطبيب يا بابا أرجوك.

اختنق صوت الصغيرة، فقال:

- حسناً. اتركيها أنت ولا تزعجيها بالأسئلة.

دخل على رجاء، وقف أمامها قائلاً:

- السلام عليكم.

لم ترد عليه ولم ترفع عينيها في مواجهته فتحول الى غرفته آسفاً.

قالت سندس في براءة طفولية:

- أمي تقول لك الغدا، جاهز إذا كنت جائعاً..

جلس الى طاولة الطعام وحيداً صامتاً. الأكل شهي كالعادة فرجاء تجيد الطبخ بشهادة كل الذين يعرفونها ويدمنون الحضور الى العزائم والمآدب الكثيرة التي كانت تتفنن في ترتيبها وتنسيقها وتنظيمها في المناسبات المختلفة.

كان الأكل شهياً.. لكنه بدا له مابخاً بدون طعم ضحكتها وحلاوة حديثها وتعليقاتها المرحة الساخرة. جلس كثيراً على مائدة الطعام لكنه كان صامتاً مكتئباً تناول القليل جداً من الأكل ثم دخل الى غرفته وهو يجاهد النوم.

«١٥»

لقد كانت رجاء شكلاً مختلفاً من باقي النساء. كانت باهرة الجمال، ذكية لدرجة مدهشة، لها شخصية ناضجة متزنة لكنها أيضاً مرحة، لاذعة الدعابة حد السخرية من نفسها.

نشأت في اسرة أفرطت في تدليلها فكانت كل طلباتها مستجابة إلا انها منذ نشأتها الأولى كانت كثيرة الإطلاع.. في سنوات الجامعة تفتحت مواهبها الأدبية وبدأت كتاباتها تأخذ طريقها إلى الصحف والمجلات ثم بعد تخرجها وعملها في وزارة الإعلام أصدرت أولى مجموعاتها القصصية التي أشاد بها النقاد كثيراً مما شجعها على الكتابة وبعد زواجها من عاصم تخلت عن العمل مرغمةً نسبةً لتنقلات زوجها داخل الدولة لكنها بعد ذلك تفرغت تماماً للكتابة وقد وجدت في نجاحها فيها عوضاً عن حرمانها من الأمومة التي كانت تتلهف عليها بكل جوارحها. لم يفكر زوجها في الزواج مرة أخرى بالرغم من ان العائق في الإنجاب كان لعيب خلقي في رحمها. كان يحبها كثيراً ولولا وصية

والدته في ظروف مرضها ووفاتها لما فكر في الزواج مرة ثانية.

لكنه الآن زوج لأخرى هي ابنة خالته التي كانت أثيرة عزيزة على الراحلة الحبيبة وهو الآن عرفاً وشرعاً مسؤول عنها. ورجاء، تخاصمه وتعامله معاملة الغرباء، وتقاطع الغرفة التي ينام فيها مقاطعة تامة بل انها وصلت الى الحد الذي جعلها تأخذ كل ملابسها من خزانة الملابس التي يضع فيها ملابسه إلى خزانة أخرى.

قال لها وقد رآها تفعل ذلك

- ألا ترين انك تبالغين كثيراً!!

قالت في تأفف...

- إنني أكره أن أضع ملابسي مع ملابس رجل فيها رائحة إمرأة أخرى.

كانت تقوم بكل الأعمال المنزلية من طبخ وتنظيف وطهي وغسل وتذاكر مع سندس دروسها كما كانت تفعل قبل أن تكتشف أمر زواجه بسمية لكنها كانت تنام في غرفة منفصلة حرمت على زوجها الدخول فيها. ولا تتبادل معه من الحديث إلا ما تقتضيه ضرورة التعامل، حيث أنهما يعيشان في منزل واحد. أمام الضيوف والأصدقاء، تتعامل معه بصورة تمثيلية مدهشة وتمثل أمام الجميع انهما لا يزالان الزوجان العاشقان.

وفي إحدى السهرات بمنزل إحدى صديقاتها بدت رجاء، في قمة روعتها.. تضحك.. وتغني وتدهش الجميع بنكاتها الحلوة وسخريتها ومداعباتها المرحة المحببة وبدا عاصم شغوفاً بها يتملاها في شوق وكأنهما عروسان في شهور زواجهما الأولى وحال أن انفض الحفل وركبت

الى جانب زوجها في السيارة... اكتسى وجهها قناعاً عابساً متجهماً والتزمت الصمت التام.

قال ضاحكاً مداعباً.

- كنت رائعة اليوم يا رجا، هكذا تكون رجاء التي أحببتها دائماً.

تململت في مقعدها وهي تحاول الإبتعاد عنه. مدَّ يده يحاول الإمساك بيدها فأبعدته بضيق ونفور.

قال في توسل :

- هل يمكنني أن أتمنى أن تستمر هذه التمثيلية الرائعة التي قمت بها أمام الجميع حتى الصباح؟ فقط حتى صباح الغد... ولشهرزاد أن تسكت بعد ذلك عن الكلام المباح.

مطت شفتيها في إمتعاض، صامتة دون أن تكلف نفسها مشقة الرد عليه.

صمت قليلاً ثم قال:

- اعطني فرصة واحدة فقط لأشرح موقفي ولا تظلميني، إن لكل متهم حق الدفاع عن نفسه مهما كانت التهمة الموجهة إليه.

- غرست خنجرك في ظهري في الظلام، لن أغفر لك أبداً. وعدت في صمت لتمارس حياتك العادية معي دون أن يحدثك ضميرك للحظة أن لي الحق شرعاً وقانوناً في اخباري بالأمر قبل وقوعه!!

- إذا كنت قد استمعت الى حديثي رجاء..

- لا تحاول .. ان الحديث في هذا الموضوع أحس به كالسهام المسمومة تنغرس في بدني. قلت لك إنني لن أغفر لك أبداً. ليس هكذا يكون التعامل مع رجاء، أيها السيد وان كنت قد تكتمت على ما حدث أمام

العراء. فلأنني لا أريد لنساتي أن تنبثق ولا لجرحي أن يتعرى كاشفاً أمام الآخرين. لن أضع نفسي أبداً تحت رحمة نظرات الإشفاق والشماتة. وسوف أسافر مع ستدس إلى الخرطوم حال إكمال السنة الدراسية ولن ترى وجهي أبداً بعد ذلك اليوم ولا أريد أن أذكرك أو أسمع صوتك سواء طلقتني أم لم تفعل!!

«١٦»

مرت ثلاثة أشهر طويلة على ذلك اليوم.. يوم المواجهة.. اليوم الذي اكتشفت فيه زوجته انه متزوج من أخرى. لم تستطع، رجاء، أن تغفر لزوجها أبداً أنه تزوج عليها. طوال تلك المدة، كانت تجلس في غرفتها بعيداً عنه تقرأ وتكتب لساعات طويلة من الليل والنهار. لا تتحدث اليه ولا تعيره اهتماماً وكأن شخصه أصبح خارج دائرة اهتماماتها لكن المنزل ظل نظيفاً مرتباً ووجبات الطعام منتظمة واستقبالها لأصدقائه وضيوفه جيداً وتعاملها مع سندس فيه حنان يزيد عن الحد المألوف.

احياناً كان يشعر بالخنق والغضب فلا يجلس إلى الأكل ولا يطلبونه ولم تكن تسأله.. في صمت تام تحمل أطباق الأكل بعد مدة من الزمن ثم تضع أطباق الحلوى و «ثيرموس» الشاي وكأنها لم تلاحظ عدم تناوله للطعام.

عاد ذات يوم قبل موعده المعتاد ، وقد شعر ببعض الإرهاق فوجيء بها فلا الحقائب بالملابس والمفارش الكثيرة المطرزة والمطبوعة وبعض

الأدوات التي اشترتها من سوق المدينة. لم يتحدث إليها. دخل غرفته. لاحظ وجود حقيبتين كبيرتين ممتلئتين بالأمتعة والأشياء الصغيرة والملابس تتوسطان الغرفة. رجع الى حيث كانت رجاء واقفة. تعمدت إهمال ملاحظة وجوده أمامها. قال وهو يحاول اغتصاب ابتسامة ورسمها على شفتيه الجافتين:

- ماذا تفعلين بحق السماء؟!

كانت قد عصبت شعرها بوشاح أخضر زاهي اللون مما جعل لون وجهها القمحي يتلألأ في نضارة ويتسكب بحلاوة عصير المانجو الطازج. بينما عيناها الذكيتان المتوشحتان بالحزن ترتفعان إليه لتقول في ادعاء بالبراءة ينتهي التهكم والسخرية..

- أنا أحزم أمتعتي لأعود من حيث أتيت ولأترك المقام للعروس الجديدة السيدة زوجتك.

فاجأته لهجتها.. صمت للحظات وهو ينقل بصره بينها وبين الحقائب أمامه ثم قال محتجاً..

- افعلي ما يروق لك.. انك عنيدة مستبدة برأيك.

ونفض كفيه وكأنه ينفض تفكيره من الأمر كله ومشى نحو غرفته ولكن ضحكتها الساخرة لاحقته وهي تقول في صوت حاد:

- انني على الأقل أفعل ما يروق لي جهاراً نهاراً وليس في الخفاء. كما يفعل الجبناء!

«١٧»

رجاء

كانت أيام وجودي الأخيرة مع زوجي مرهقة لأعصابي ومعذبة بلغت فيها درجة إيلامي لنفسي ولعاصم مرحلة لا أكاد أصدقها الآن. كنا قد اتفقنا على إخفاء موعد سفري عن أصدقائنا الكثيرين، وبينما كنت أنا مستغرقة تماماً في حزم الحقائب المثقلة بالملابس وبالمفروشات والأواني القيمة والكثير من الكتب وسندس تكاد تطير من فرحة انفعالها بالسفر كان عاصم يبدو مرتبكاً حزيناً مكسور النفس. في المطار لم يعلق بكلمة واحدة على المبلغ الضخم الذي دفعه إيفاءً للوزن الزائد في الأمتعة كما كان يفعل عادة.. بقي صامتاً يجاهد ابتساماً زائفاً يغالب به حزنه ويحاول مداعبة سندس ببعض الكلمات التي يغص بها حلقه ورغم حزني فقد شعرت ببعض الشماتة عليه.. هو وحده الذي كتب بيده سطور هذه العلاقة الآسنة التي وضع السيناريو فيها وقام بإخراجها حظي التعس الذي جعلني رغم كل ما أملك من مؤهلات عقلانية وجسمانية إمرأة

عقيم..!!

سنوات طويلة مرّت منذ عودتي للخرطوم.. لم أستطع الإقامة في بيت الأسرة وفضلت أن أؤجره لأحد موظفي السفارة العمانية وبذلت جهداً كبيراً في اعداد الشقة الموجودة بالطابق الأول التي كان يسكنها عادل مع رجاء، والدة سندس. كرهت السكن فيها في البداية.. وخيل إليّ إن في غرفها رائحة أنفاس رجاء، وأيام الشقاء التي عاشتها مع عادل أخي. كنت في بعض الأحيان أفكر..كيف سيكون الأمر لو أن سندس عرفت إن والدتها لم تمت ساعة ولادتها.. وانها كانت تعيش في هذا السكن الذي ظل مغلقاً.. لزمان طويل. ولا يزال يعبق برنين ضحكها وزفير آلامها وأوجاعها.. وانكسار قلبها؟

وكأن القدر كان يرسم لي خطوط مأساة أخرى..

ظل جرس الباب ذلك اليوم يرنّ بإلحاح وأنا أنهض بتكاسل شديد من سريري. الساعة لازالت التاسعة صباحاً وقد سهرت في القراءة حتى الرابعة صباحاً.

عندما فتحت باب الشقة وجدت أمامي سيدة حبشية في مقتبل العمر ظننت أنها مربية أطفال تعمل عند أحد الجيران.

تطلعت اليّ بدهشة ثم سألتني بتردد.

- هل .. هنا منزل عادل.!!

- نعم

- هل يمكنني مقابلته؟

- عادل سافر وأنا أخته رجاء..

انفرجت أساريرها ترددت قليلاً ثم أدخلت يدها داخل صدرها واعطتني

رسالة . قالت إنها ستسافر الى مدني وستعود بعد أسبوع لأخذ الرد وحتى تلك اللحظة لم يراودني أدني شك في أن الرسالة بخصوص سندس وإنما تعاملت مع الأمر بمنتهى السذاجة وظننت انها رسالة من صديقة قديمة أو زميلة دراسة لعادل.

كان المظروف الخارجي يحمل عنوان السكن ورقم التليفون القديم. شققت المظروف الأول كان يوجد مظروف آخر أزرق اللون مكتوباً عليه بحروف عربية ضعيفة "إلى عادل". ترددت في فتح الرسالة وقرأءتها فكرت في تركها جانباً لحين اتصال عادل بي هاتفياً وإخباره بالأمر لكنني تذكرت أن حاملة الرسالة قالت انها ستعود بعد أسبوع.

شيء غامض كان يلحّ عليّ بعدم قراءة الرسالة.. لكن حب الإستطلاع تغلب عليّ وسيطر فضولي على كافة المشاعر الأخرى.

حبيبي عادل...

وشهق قلبي وهو يكاد يثب إلى حلقي!

كانت الرسالة من رجاء. والدة سندس!! وفي السطور القليلة المنتهية.. المحتشدة بعواطف زوجة مهجورة وحسرة أم تعذبت من حرمانها من إبنة لم تسعد بلاقاتها ومحبتها منذ أن تركتها رضيعة عمرها اسبوع واحد. كانت رجاء تلح على رؤية ابنتها التي أصبحت شابة في السادسة عشرة من عمرها والتي تتابع أخبارها من بعد بواسطة إحدى صديقاتها وذكرت في سطور الرسالة كيف أنها لم تهنأ بحياتها منذ سفرها من الخرطوم وانها اصيبت بسرطان الثدي وتمّ استئصال أحد ثدييها مما أدخلها في حالة دائمة من الإكتئاب وتطاول عليها المرض.. وانتشر في داخل جسدها.. والتهب الثدي الآخر وهي الآن.. نزيل بأحد المستشفيات

المكومة في انتظار الموت. وتتمنى أن ترى ابنتها الوحيدة. قبل موتها..

كانت رسالة مؤثرة محزنة قالت فيها رجاء انها تعلم انها لا تستحق شرف الأمومة وهي التي تخلت عن ابنتها بإختيارها لكن عقاب الله لها كان قاسياً فقد عاقبها ببتر ثديها الذي حرمت على إبنتها الرضاعة منه ولم تكن في ذلك الوقت تفكر إلا في جمال جسدها ومتعة نفسها وهي الآن نادمة على كل ما ارتكبته في حق نفسها من آثام.. وفي حق ابنتها من نكران وتتوسل إلى عادل. أن يرحم اللحظات المتبقية من عمرها ويسعدها برؤية إبنتها. التي هي الآن.. مصدر فخري .. ملء العين والقلب وشغلي الشاغل وملاذي الذي احتمل الحياة من أجله!! ماذا أقول لسندس!! كيف أخبرها بما حدث دون ان أجرح مشاعرها الرقيقة أو أؤذيها .. هل أخفي الرسالة عنها وأسكت؟

وماذا عن السيدة التي ستعود لإستلام الرد؟ وماذا عن ضميري الذي سيعذبني طول العمر إذا توفيت رجاء. دون أن ترى ابنتها؟

هل ستكرهني سندس لإخفائي الحقائق عنها!!

كان حديثي مع عادل بالهاتف مقتضباً وقصيراً ذكر أنه في اجتماع وان زوجته الكندية قد وضعت إبناً ذكراً آخر وقد أطلق عليه اسم أبي وهي لا تزال في المستشفى.

استغرب أولاً ظهور رجاء المفاجيء. وقال ان سندس الآن في السادسة عشرة ومن حقها معرفة الحقائق وهي على أبواب الدخول للجامعة. ذكرت له أن مفاجأتها بحقيقة كهذه قد تدمر نفسيتها الرقيقة فقال ضاحكاً.. انه واثق من حكمتي في مواجهة الموقف ثم أردف في سرعة

وحياء .. وكأنه يخجل من حديثه.

- سوف أرسل لك على حسابك في البنك خمسة آلاف دولار لتدبير سفرك مع البنت وعودتها معك بعد رؤيتها لوالدتها.

وتمنى لي حظاً سعيداً واعتذر كثيراً لانه يكلفني هذه المشقة لكنني أخبرته - صادقة - أن سندس هي إبنتي وانني أحبها أكثر منه بل أكثر من نفسي.. أكملت حديثي معه.. ووضعت سماعة الهاتف.. ثم تهالكت على أول مقعد أمامي. ودوى طنين هائل في رأسي.. انفجرت ملايين الأسئلة المرهقة تحاصرني وتدق على ساحات عقلي ونفسي ماذا أفعل.. كيف أتصرف؟ ماذا أقول لسندس؟؟ هل أخبرها بالحقيقة؟ كيف سأتصرف اذا فضلت هي العيش مع أمها وتركتني؟

هل ستغفر لي كتمان الحقائق عنها.. هي الفتاة المراهقة المرهفة الذكية شديدة الإعتزاز بشخصيتها؟ لقد أحسنت تربيتها. وهي الآن لا تعرف حلولاً وسطى ما بين الخطأ والصواب. لقد علمت بعد دخولها المدرسة إن أباها هو عادل اخي وان أمها قد توفيت حال وضعها..

والآن.. ماذا اقول لها كيف أخبرها بما حدث دون أن أجرح مشاعرها الرقيقة أو اؤذيها.. هل أخفي الرسالة عنها وأسكت؟ هل ستغفر لي سندس إخفائي الحقائق عنها.. هل.. تتشبث بوجود أمها في حياتها؟؟ هل ستهجرني سندس إنتقاماً مني وتفضل العيش مع أمها؟؟

«١٨»

مر يومان بعد محادثتي لعادل وأنا أتهيب لحظة المكاشفة مع سندس.. أغرقتها في بحر من الحنان والاهتمام قلت لها صباح اليوم الثالث وأنا أجاهد نفسي في شجاعة..

- لقد شاهدت مطعماً جميلاً عائماً على كورنيش النيل بأم درمان.

فاجأتني في لهفة: ذلك القريب من المسرح القومي؟!

- تماماً .. ما رأيك أن أعزمك اليوم على المسرحية المعروضة في المسرح هناك؟ ولكن بعد أن نتغدى في المطعم العائم.

- لماذا لا تكون الدعوة عشاء بعد المسرحية؟

فكرت بسرعة شديدة. إنني أريد أن أهيء لسندس جواً يمكنني فيه إخبارها بأن أمها على قيد الحياة.. في الليل يكون الوقت متأخراً.. ماذا لو أغمي عليها مثلاً ولم تحتمل الخبر.. كيف سيمكنني التصرف والخرطوم كلها تطفئ أنوارها بما في ذلك أسواقها ومستشفياتها وتنام منذ الساعة الثامنة مثلها مثل قرية خاملة؟!

قلت بسرعة:

- أنا أفضل الغداء.. نذهب متأخرين حوالي الرابعة .. ثم..

قاطعتني:

- وما اسم المسرحية؟

- زواج الغيلان والجراد..

- الله.. يبدو الإسم مثيراً .. أنا موافقة على الدعوة.

إرتديت فستاناً أخضر وثوباً أخضر من التوتال السادة عليه رسومات جميلة بألوان زاهية من التطريز الملون. كنت أتفاءل باللون الأخضر وكنت أريد أن أحمّل نفسي من الداخل وأنا مقدمة على مواجهة موقف قد يعيد تشكيل حياتي وربما تغييرها.

لبست سلمى بلوزة مشجرة وتنورة بيضاء سادة ترتفع فوق ركبتيها وتكشف عن ساقيها الجميلتين.

نظرت إليها بعيون الأم التي تخاف على ابنتها من النظرات الجائعة وتخشى عليها من نزلة النسيم.

قلت لها في حنان آمر..

- يا حبيبتي لن نذهب إلى نادي التنس.. سوف نذهب إلى المطعم العائم ثم نذهب إلى المسرح.. هذه أماكن شعبية تغص بأنواع مختلفة من البشر.. لا تصلح مثل هذه الملابس هناك، ارتدي بنطلونا أو تنورة طويلة..

- يا سلام عليك ياماما.. دائماً انت رجعية ومتحفظة زيادة عن اللزوم.. كل بنات الناس يلبسن ملابس قصيرة...

- بنات الناس لسن جميلات مثلك ولا سيقانهن حلوة مثل سيقانك

وأنا أخاف على ابنتي من عيون الناس الرقحة والحاسدة أيضاً.

نهضت من مكانها وهي تضحك وأغرقت وجهي بالقبلات وهي تحتضنني في محبة غامرة وقالت:

– يا سلام عليك أنت أعظم ماما رجعية في الدنيا!!

لم أتمالك نفسي هرب اللون من وجهي ودواخلي ترتج في عنف بالسؤال المرعب.. هل سيبقى هنا هو رأيها بعد مكاشفتي لها بحقيقة.. وجود والدتها على قيد الحياة!!! لاحظت اضطرابي قبلتني مرة أخرى. أخذت مفتاح السيارة من أمامي وهي تقول:

– سوف أخرج السيارة من الجراج.

تجاوزت شفقتي الموقف المحرج وصرخت خلفها:

– بهدوء .. لا تضغطي كثيراً على الفرامل أعملي حساب البوابة!!

حال جلوسنا في المطعم طلبت كوبين من عصير المانجو المثلج. وتلفّت حولي أتأمل المكان بكل جماله ورقته والنيل بجلاله وروعته يطوّق الشمس ويحاصرها وهي تتراقص بضوئها فوق أمواجه بسحر رهيب. بعض الصبية.. يستحمون فوق مياه النهر.. يتلاعبون ويقفزون عراة في لهو صاخب بينما الأشجار الضخمة التي تنمو بطريقة عشوائية وكثافة ترسل ظلالها في أشكال طويلة على صفحة الماء. المطعم على شكل سفينة غاية في النظافة والتنسيق ويقوم بالخدمة داخله رجال عكس ما يحدث في كل مطاعم الدنيا.. حيث يقوم بالخدمة فتيات متبرجات جميلات الأجساد.

قلت للنادل:

– سمك محمر وطبق أرز وسلاطة.

واجهتني سندس بعينيها وهي تضحك بدلال.. ثم قالت .. للتدليل:

- حمام مشوي ومكرونة بالفرن. وسلاطة باذنجان بالزبادي.

توغلنا كثيراً في ضحكنا.. حب سندس للحمام كان دائماً مصدر نقاش بيني وبينها فأنا لا أستطيع أبداً التهام هذه الطيور الجميلة البائسة التي تشوى وتحمر وتباد كل يوم في موائد السودانيين الذين اشتهروا بحبهم لأكل اللحوم بأنواعها ويكاد لا يخلو بيت، خصوصاً في القرى السودانية والمدن الصغيرة من برج للحمام وقن للدجاج وعدد من المعزات تربىّ للبنها ولأكل صغارها الذكور أيضاً ويعتبرلحم العتود من أشهى اللحوم.

- ماما.. أين أنت؟ هل ستكتبين قصيدة في منظر النيل الجميل؟.. لو كانت لي ملكة الكتابة لما أفلت هذا المشهد من قلمي.

أعادني صوتها بعنف إلى الواقع المرير وموقفي الذي لا أحسد عليه وكنت قد تناسيته للحظات وأنا أرقب في سهوم أمواج النيل الساجية.

- هل تحبين السودان يا سندس؟

رفعت عينيها في دهشة واستنكار.

- ما هذا السؤال السخيف ياماما؟ السودان هو وطني.. هل هناك أحد يكره وطنه؟!

- لو كان لك الخيار في العيش في مكان آخر في كندا مع أبيك مثلاً.. هل كنت ترفضين؟

- والله. والله.. فكرة رائعة سوف أذهب بكل سعادة.

ثم ضحكت مستدركة ..

- سوف أذهب بكل سعادة.. شرط أن تكوني معنا.

ضعفت نفسي.. تمنيت أن أنطلق من مكاني وآخذها في أحضاني.. هذه العزيزة الحبيبة.

- سندس...

- ماما إنك تحيرينني اليوم طريقتك في الأكل والحديث لا تعجبني!!

- سندس أنت تعلمين تماماً كم أحبك.. وأنك الشيء الوحيد الذي يدفعني للتمسك بالحياة التي لا تساوي خردلة في نظري من غيرك.. أنت تعلمين أنني في كل تصرفاتي وأقوالي لا أقصد سوى مصلحتك أنت.. أنت فقط من يهمني في هذا الوجود لأنك سبب وجودي في هذا الكون الموحش.

ظلت ترمقني بصمت في البداية ثم انهمرت دموعها فجأة وقالت:

- ماما.. أنا خائفة!!

رجل وامرأة يبدو أنهم حديثي عهد بالزواج يجلسان على الطاولة القريبة منا مستغرقان تماماً في حديث هامس.. رجل آخر يجلس منفرداً على طاولة مقابلة يلبس جلباباً أبيض ويلتحف شالاً من النسيج المحلي يدين نوعاً ما. ويبدو عليه الثراء مثل تجار السوق العربي بالخرطوم كان يتهشنا بنظرات نهمة بينما يدخن بطريقة إستعراضية.. نظرت إليه مباشرةً وأنا أصب في نظراتي كل حقدي وغضبي على الظروف التي جعلتني في هذا الموقف الصعب.. واجهني بعينيه في وقاحة ولكنني قررت تجاهل وجوده تماماً.. سندس تنظر إليّ باستغراب وتمسح دموعها.. ربما لاحظت قسوة في ملامح وجهي لم تلمحها من قبل.. تصنعت المرح وقالت:

- قولي كلامك مباشرةً يا أمي.. كنت أحس منذ خرجنا من البيت انك

جئت بنا أيها الكائن عن قصد.. ماذا يشغلك.. قولي.. وستدركين أن ابنتك الحبيبة عاقلة جداً.. وتحبك جداً جداً... و..

بحثت عن يدها على الطاولة واحتويت كفها الدهانة بكلتا كفيّ.. واجهتها بعينيّ ثم قلت بعد فترة صمت:

- ستدس والدتك لا تزال على قيد الحياة.. وهي إمرأة أثيوبية الجنسية.

إختلج جسدها كله.. جحظت عيناها..وكفها ترتجف ارتجافاً شديداً وأنا أحاول أن أربت عليها في حنان وجزع. إرتعشت شفتاها وكأنها تريد أن تقول شيئاً.. قلت بسرعة وكأنني خشيت أن أفقد شجاعتي في فورة شفقتي عليها:

- والدتك تنازلت عنك فور ولادتك وسافرت إلى بلدها.. لكنها الآن مريضة بالسرطان وقد أرسلت تطلب رؤيتك.

سحبت كفها مني.. وضعت رأسها على طرف الطاولة وبدأت تبكي وكنت أنا أيضاً أبكي لبكائها.. وخوفي من ردة فعلها.

كانت تنهنه بالبكاء، وجسدها كله يرتعش وقد انكشف الغطاء عن رأسها وتبعثر شعرها الجميل فوق الطاولة التي تبعثرت عليها بقايا الصحون والأكواب..

رفعت وجهها فجأة وقالت وعينيها الدامعتين تحملقان في رعب:

- وعادل.. أبي.. هل هو أبي.. حقيقةً؟!

صرخت.. في جزع..

- ستدس.. عادل هو أبوك الحقيقي.. وقد تزوج أمك بعقد زواج شرعي ... و ... وعاش معها هنا في السودان في نفس الشقة التي تقيم

أنا وأنت الآن فيها.. ثم اختلفا أثناء فترة حملها بك واتفقا على الطلاق.. وتنازلت والدتك عن حقها في حضانتك وسافرت إلى بلدها بعد أسبوع واحد من مولدك.. ولم نسمع عنها أبداً بعد ذلك.. غير أنها أرسلت خطاباً قبل ثلاثة أيام تطلب رؤيتك.

– هل تقسمين بالمصحف الشريف على أن عادل هو أبي.؟؟

قلت وأنا أبكي بحرقة وقد تولت جسدي قشعريرة شديدة..

– ستدرس يا حبيبي.. أنا أتألم، أكثر منك لما يحدث لك الآن.. لكن لا تجعلني هنا يفقدك يقينك بصداقية الكون من حولك.. عادل هو والدك الحقيقي وأنا أمك التي أحبتك وتولت تربيتك منذ أخذتك من المستشفى وعمرك عشرة أيام.. أنت إبني وحبيبي وكل ثروتي في هذه الدنيا!!

أطلقت تنهيدة طويلة حارة من أعماق قلبها ثم وضعت رأسها على كفيها وأخذت تحاول عبثاً إيقاف دموعها والسيطرة على موجة البكاء التي اعترتها.

قمت من مكاني.. وقفت خلفها. أسندت رأسها الى صدري وأنا أمسّد شعرها وأساوي خصلاته المبعثرة وأمسح دموعها بطرف ثوبي بينما الدموع تغرق وجهي.

بعد لحظات طويلة جداً هدأت.. وسكتت من البكاء.

صببت من الدورق أمامي كوباً من الماء البارد وناولتها له.

–لا أريد..

– أرجوك..

ترددتْ قليلاً . ثم قلت..

– أرجوك..عشان خاطر ماما حبيبتك اشربي..

ارتعشت يدها قليلاً.. أمسكت بالكوب وتجرعته من آخره، ثم قالت بصوت تداخل فيه الحزن والبكاء..

- أريد أن.. أعود الى البيت.

رغم انني توقعت هذا.. لكنني قلت في مرح مصطنع..

- والمسرحية!!

قالت تؤنبني وكأنها تبكي..

- ماما.. أرجوك أريد أن أعود إلى البيت حالاً..

نهضت.. أسندت رأسها الى كتفي.

وأنا أقودها خارج المكان بينما خطواتها تتعثر في عتبات المدرج .. لحق بي الرجل البدين قائلاً في فضول قذر..

- ياسيدة.. سلامتكم.. هل تطلبون مساعدة..؟! سيارتي المرسيدس.. قرب المدخل تماماً..

نظرت اليه بازدراء.. وأنا أقول بحدة..

- أشكرك.. لسنا بحاجة الى مساعدة.. معنا سيارة.

عند وصولنا الى حيث أوقفنا السيارة فتحت الباب لسندس لكنها قالت لدهشتي الشديدة..

- أريد أن.. أجلس.. في الخلف.

-لماذا ..؟! لماذا لا تجلسين بقربي يا حبيبتي؟!

- أنا متعبة جداً.. أريد ان أبقى راقدة.. مسافة الطريق إلى المنزل.

استدرت .. فتحت باب السيارة الخلفي وساعدتها على الدخول دون التعليق بكلمة واحدة.. ولفّنا صمت حزين بارد.. طوال طريق العودة.

أرهقني حزن سندس واعتصامها بغرفتها نفساً وغضباً. أسبح البيت

دون ضحكاتها وحديثها مكاناً كئيباً قاحلاً.. لم أخرج من المنزل قط.. وكنت دائماً على أهبة الإستعداد لتلبية طلباتها.. أتحايل عليها من أجل كوب عصير أو بعض لقيمات تزدردهن من غير شهية إرضاءً لي.

في اليوم الخامس وكنت حينها أشاهد برنامجاً وعظياً ساذجاً يعرض يومياً على القناة المحلية بطريقة تثير سخيفة.. دخلت عليّ ستدس فجأة.. وجلست إلى جانبي على الأريكة.. وجهها شاحب وعيناها حزينتان.

- أهلاً يابنتي الحبيبة.. حمداً لله على سلامتك.. البيت من غيرحديثك وضحكتك المرحة لا يساوي شيئاً!!

بقيت على صمتها الحزين. وتحركت بنظراتها حولها .. وكأنها تبحث عن شيء ضائع، ثم قالت بعد تردد..

- هل تعرفين.. أين كانت تنام تلك السيدة الأثيوبية التي تقولين انها أمي..؟؟ أعني في أية غرفة؟

فاجأني سؤالها.. لكنني تماسكت وقلت في حيرة حقيقية..

- مع الأسف أنا لم أتشرف بمعرفتها، ولم أزرها أبداً.. أبوك تزوجها في السر أخفى الأمر عني وعن أمي، ولم يخبرني بها إلا بعد سفرها.. وكنت أنت في ذلك الحين لا تزالين بالمستشفى.

توقعت بكاءها.. لكنها لم تفعل.. وبقيت جالسة بقربي صامتة.. إحترمت صمتها وتظاهرت بأنني مهتمة بمتابعة البرنامج التافه..

قالت بعد أن استطال صمتنا المتوتر المشحون لدرجة الوجع..

- متى سنسافر.. لنرى السيدة أمي؟؟

قلت وأنا أضحك..

-نحن ننتظر التعليمات من السيد والدك.. أنا أخبرته بخطاب والدتك وأعطاني مهلة اسبوع للتمهيد لإخبارك بالحقيقة وهو واثق من انك عاقلة.. وستقدرين لماذا حاولنا إخفاء حقيقة وجود أمك على قيد الحياة.. كنا نريد إستقرارك النفسي ولا نود أن تصدمي بحقيقتة.. أنها تخلت عن حضانتك..

إرتفع صوتها يقاطعني بجرأة .. حادة.. أدهشتني..

-ربما كانت مرغمة على ذلك.. ولم يكن لها خيار.. أنا لم أتعرف على أبي عن قرب، لم أعرفه إلا من خلال إجازاته القصيرة جداً.. أو من خلال الهاتف.. ربما كان قاسياً عليها أو .. أو أساء معاملتها.

إخترقت سهام حديثها عقلي.. تزلت مسارب عواطفي الجوانية وأنا أتول في أسى..

- لك الحق في أن تدافعي عنها كما تريدين.. لكن ليس من حقك إتهام أبيك في وقت هو ليس موجوداً فيه ولايستطيع الدفاع عن نفسه!! حين يتصل بنا قولي له كل ما يخطر على بالك.

«١٩»

طوال فترة الإستعداد للسفر كنت أحس بنفسي وكأنني أخوض في وحل من الضباب الكثيف. قلت لستنس قبل يوم من السفر.

- ألاتريدين شراء هدية لوالدتك!!

قالت في جفاء...

- وكيف سأختار الهدية.. إذا كنت لا أدري كيف يكون شكل الوالدة أو ذوقها؟؟

- اشتري لها زجاجة عطر.. وبعض قمصان النوم القطنية التي قد تحتاج إليها في المستشفى.

ابتسمت وكأن الفكرة قد راقتها، وأشرق نور إبتسامتها في وجداني المظلم، ولكنها تجاهلت الموضوع تماماً بعد ذلك.

تعثرت في سلالم الطائرة والضباب يحتويني ويغلق منافذ الضوء في دواخلي. قلق مدلهم يتكاثف داخل صدري.. ماذا.. لو كانت والدة ستنس قد توفيت.. وإن وجدناها حية.. كيف سيكون لقاؤها بابنتها؟؟

تبادلنا كلمات قلائل طوال رحلة الطائرة، وسندس تبدو.. قلقة.. عصبية ترتجف أطراف وجهها وكأنها تهم بالبكاء. تظاهرت بالإستغراق في النوم تهرباً من الموقف التعس الذي يحتوينا.

لم تستغرق إجراءات الوصول وقتاً طويلاً في مطار أديس أبابا.. أعطينا سائق سيارة التاكسي عنوان الفندق الذي أوصانا عادل بالنزول فيه.. ربما كان هو نفس الفندق الذي قضى فيه أيام غرامه الأولى مع والدة سندس!!

حجزت غرفة مزدوجة في الطابق الخامس. تركت حقائبنا في غرفة الإستقبال بالفندق. أعطيت النادل عنوان المستشفى الذي كان مكتوباً في رسالة والدة سندس بعد أن منحته بقشيشاً كبيراً. أسرع إلى الشارع ثم عاد يخبرنا بأنه أحضر لنا عربة تاكسي سوف يأخذنا سائقها حتى المستشفى وينتظرنا ليعود بنا للفندق. وألمح إلى أنه يعرف سائق التاكسي معرفة شخصية وأنه اتفق معه على أن ندفع الأجرة بعد عودتنا إلى الفندق.

كان الوقت عصراً.. والشوارع تكتظ بالسيارات والمارة،وسندس في صمتها، القلق.. الغامض تزيد من توتر أعصابي.

تأخرت في النزول من التاكسي عند وصولنا.. بقيت لحظات في مقعدها.. وكأنها تخشى مواجهة الموقف القادم.

مبنى المستشفى أبيض اللون.. فخماً على طراز المعمار الإيطالي، لكنه يتسربل بالبؤس في داخله.. الحيطان متسخة.. والعنابر مكتظة بالمرضى.. والضوضاء والفوضى يحيطان بكل شيء.

في قسم الجراحة قابلت الممرضة المسئولة عن العنبر وسألتها عن

المريضة رجاء ياسين. نظرت إليّ في ريبة. تداركت الأمر وقلت بسرعة..

- أنا صديقتها.. وهذه ابنتها التي كانت تعيش في السودان وهي لم ترها منذ زمان طويل.

واجهتني الممرضة بنظرات جزعة وهي تقول في فرحة..

- تقولين إبنتها..؟؟ إنها تهذي بإسمها طوال الوقت.. سندس؟!!

- نعم.. لقد جاءت الآن من الخرطوم خصيصاً لرؤيتها بعد أن علمت بمرضها.

صمتت للحظات ثم قالت..

- حالتها الصحية لا تسمح لنا بمثل هذه المفاجأة السارة.. إنها الآن تواجه مرحلة صحية حرجة.. لذلك لابد من التمهيد لمثل هذا الموقف فربما.. ربما لا تحتمله صحتها. أتركي البنت معي واذهبي أنت لرؤية الأم والتمهيد لها عن حضور إبنتها.

نظرت إلى سندس.. كانت خائفة.. مضطربة.. توسلت اليّ بنظراتها.. فقلت بسرعة..

- لا.. سوف ندخل سوياً.. اذهبي أنت إليها ومهدي للموضوع.. قولي لها إننا زوار جئنا من طرف ابنتها وسأعرفها أنا عليها.. بالتدريج.

مضت دقائق قليلة.. وعادت الينا الممرضة قائلة في برود..

- يمكنكما الدخول الآن..

ارتجفت سندس بشدة. أخذتها في أحضاني وأنا أربت بيدي برفق وحنان بالغ على ظهرها. كانت تبكي وهي تتألم في صمت. قلت لنفسي.. يا للصغيرة المسكينة.. أدفع عمري عوضاً عن تعريضها لهذا

الأرق النعس!!

ابتسمت لسندس مشجعة وأنا أقودها من يدها قائلة..

-كوني شجاعة.. وعاقلة.

تبعنا الممرضة إلى غرفة طويلة بها عدد من الأسِرّة.. يرقد عليها عدد من الهياكل الآدمية البائسة بينما يقف كثيرون، رجال ونساء في هرج ومرج.. يفترشون أرضية البلاط المتشققة وقد فرشوا عليها الحصائر والملاءات القديمة.. كانوا زواراً ومرافقين للمرضى.

وقفت الممرضة أمام سرير مرتفع.. متسخ الفراش وقد تقشر غطاؤه بصورة قبيحة ويرقد فوقه حطام آدمي يتدثر بغطاء أبيض.

بحثت عن يد سندس الصغيرة الرقيقة المرتجفة. وأخذت أضغط عليها بعصبية أحاول عبثاً إخفاءها لتشجيع سندس.

هزت الممرضة السرير ببطء.. ثم كشفت غطاء الوجه!!

رأس أصلع.. عيون غائرة.. وجه داكن السواد..

إرتجف قلبي.. ظننتها ضلت بغيتها.. وأن الذي يرقد أمامنا رجل وليس إمرأة!!

- رجاء.. عندك زوار من السودان.. أنظري إليهم.

كانت حدقتا عينيها شديدتي البياض.. يرتع السواد فيهما، ونظراتها تائهة.. غير مستقرة. قالت بلغة عربية ركيكة.. في صوت ضعيف خائف بعد فترة صمت حطمت أعصاب سندس فبدأت في البكاء..

- أهلاً.. من أنتم..؟! اتقربن... كي أتمكن من رؤيتكن...

- أنا رجاء.. أخت عادل.. زوجك السابق.

بدأت المرأة بالصراخ والهياج..

- آه آه .. أين ابنتي.. أين ابنتي.. هل رأيتها..؟

- إهدئي يا رجاء، أرجوك.. إبنتك معي وهي في أمان.. وقد جاءت معي لزيارتك.

حاولت الجلوس وهي تقول في اهتياج..

- أين هي..؟! أريد أن أراها قبل أن أموت.. قولي لعادل.. انني أموت.. سأراها فقط واتركها له.. أنا لا أستحقها.. أنا لست أماً طيبة، إنني لا أستحق محبتها.

كان جسدها يرتعد في انفعال وهي تصيح وتبكي دون أن تنزل دموعها!!

حتى تلك اللحظة.. لم تكن قد لا حظت وجود سندس الباكية التي تقف خلف ظهري. تحدثت إليها الممرضة باللغة الأمهرية وهي تحاول تعديل جسدها إلى وضع الجلوس بحشر عدد من الوسائد خلف ظهرها.. وبان تجويف ثدييها الخاوي بشعاً.. وانبعثت رائحة نتنة من جسدها.. وقد تحولت كلها الى عينين واسعتين مشدودتين على جلد أسود متغضن.. كطفل افريقي أهملته القبيلة!!

تمالكت نفسي.. إقتربت منها وأنا أحيط سندس من خاصرتها بذراعي وهي تكاد تسقط إعياءً وقد تهالكت تماماً من شدة الإنفعال.

- رجاء.. هذه هي سندس الرائعة. سندس إبنتك بالولادة.. وابنتي التي تربت في أحضاني.. لم تفارقني منذ ان كان عمرها اسبوعاً واحداً.

بوغتت المرأة تماماً.. لم تستطع الحديث.. وبقيت عيناها مفتوحتين دون أن ترمش.. وسندس تتقدم منها.. في وجل!!

- سلمي على أمك يا سندس.

مدّت إليها.. يداً متخشبة، باردة كالثلج، وقالت بصوت مرتجف..

- أهلاً. أهلاً وسهلاً .. سلامتك.

بقيت المرأة صامتة.. وكأنها عاجزة عن استيعاب ما يدور حولها من أحداث. أومأت إلى سندس وهمست في أذنها..

- قبلي جبين أمك.. اقتربي منها. دعيها تلمسك لتصدق أنك موجودة أمامها حقيقة.

كانت سندس تغالب انفعالها العاطفي ناحية أمها، وتجاهد الرائحة الكريهة التي بدأت تحوم ببشاعة قاسية حول المرأة بطريقة تدعو الى النفور. اقتربت سندس في رعب والتصقت بالسرير.. أخذت أمها تتحسسها بيدين هزيلتين واهنتين وترده في صوت ضعيف متكسر يقطع نياط القلب..

- إبنتي.. ابنتي الحبيبة.. ابنتي سندس.. هل أنت حقاً أمامي.. وانتي الملك.. ما أسعدني بك.. وما أشقاني وأنا لا أستطيع ضمك إلى أحضاني، وإرواء شوق السنين الذي أحرقني حنيناً إليك.

بكت سندس وهي تقول..

- ولماذا .. لم تتصلي بنا طوال السنوات الماضية!!!

- لاتعاتبيني يا ابنتي.. لا أدري ماذا قالوا لك عني.. ولم يبق في العمر سعة للسماع أو القول.. أنا سعيدة بك يا ابنتي الحبيبة، وأعتقد أن الله قد غفر لي ذنوبي جميعاً ما دام قد كافأني برؤيتك قبل أن أموت.. دعيني ألمس شعرك الجميل ووجهك البهي.. الله.. الله تبارك الخلاق.. ما أجملك يا ابنتي.. ان البقاء بجانبك يوماً يعادل متعة الدنيا ومباهجها.

وسندس قد امتلأ قلبها شفقة.. وتعاطفاً على المرأة البائسة التي هي أمها... ولكنها كانت تقاوم في استماتة.. وتجاهد عنف الرائحة الكريهة التي تزداد كلما رفعت أمها ذراعيها لتتحسسها في حنان وتتلمس بأصابعها ملامح وجهها وشعرها.

كانت قد توقفت عن البكاء، ولكن جسدها بقي يرتعد وكأنها مصابة بالحمى.

قالت فجأة بصوت خفيض وهي ترنو اليّ بعينيها في ضعف..

– ماما.. تعالي إلى جانبي أرجوك.. أحس بأنني سأسقط مغشياً عليّ.

أسرعت إليها في جزع.. وقفت خلفها. أومأت إلى الممرضة في توسل، فقالت تخاطب المريضة في حزم وهي تمسح دموعها التي سالت تأثراً..

– يكفي هذا اليوم.. دعيها يا رجاء.. ابنتك متعبة، لقد جاءت من المطار إلى هنا دون أن ترتاح من تعب الرحلة. أتركيها الآن.. وغداً في مثل هذا الوقت ستعود إلى زيارتك.

قالت بصوت واهن وهي تبكي..

– أرجوكم أتركوها تنام اليوم عندي..

نظرت إليها سندس في رعب ثم نظرت اليّ وكأنها تستغيث بي.. فقلت..

– إنها متعبة يا رجاء.. دعيها تذهب لترتاح.. وسوف تعاودك غداً..

– آه.. آه.. يا ابنتي، تعالي اليّ وقبليني لأعرف أنك قد غفرت لي ما ارتكبته في حقك من ذنوب...

دفعت سندس برفق لهاء والدتها.. إنحنت عليها. طبعت قبلة حانية

على الجبين الملتهب ثم رفعت رأسها بسرعة وابتعدت عن السرير وعادت لتلتصق بي.

ظلت المرأة البائسة تسبح في تشنج وجسدها الهزيل يهتز بعنف في هستيريا مخيفة. وبينما نحن نترك الغرفة رأيت الممرضة تخدرها بحقنة مهدئة.

وجدنا سائق التاكسي في انتظارنا عند بوابة المستشفى. كنت في غاية التعب من إرهاق رحلة الطائرة والجهد العصبي الهائل الذي بذلته في المستشفى لكي أسيطر على انفعالاتي وأكون مصدر شجاعة لسندس.لكن سندس بدت منهارة تماماً. ارتمت في حضني حال وصولنا العربة وكانت تحاول عبثاً كتمان نشيجها بينما دموعها تغرق صدري وأنا أحاول تهدئتها ومواساتها وقلبي يتمزق من أجلها.

انزعج موظف الإستقبال بشدة وهو يراها تجر قدميها في تثاقل وأنا أكاد أحملها على كتفي حين دخولنا بهو الفندق، وقد ظنها مريضة.

وجدنا أمتعتنا، وقد نُقلت الى الغرفة السابعة والخمسون.. كانت سندس ترتعد من الحمى، أرقدتها على السرير ودثرتها بالأغطية. ذوبت قرصين من دواء مهدئ، أحمله دائماً في حقيبتي وتحايلت عليها كثيراً لتشربه، ثم طلبت حليباً دافئاً وهددتها بأنني سأستدعي الطبيب لمعاينتها وحقنها بمهدئ، إذا لم تستجب لتوسلاتي وتشربه.

ظللت ساهرة إلى جانبها طوال الليل، والحمى تهرس عظامها بلا هوادة وهي تهذي وترتجف، وقلقي يزداد ساعة بعد أخرى، وقد قررت حملها إلى الطبيب حال انبثاق الفجر.

نظرت إلى الساعة فوق معصمي في قلق. فرشت سجادة الصلاة

ومضيت أصلي.. ثم هيأت نفسي لسجود طويل وأنا في حالة دعاء.. أتضرع إلى الله بأن يتداركنا بلطفه ورحمته.. ويخفف عن سندس وقع اصطدامها بالواقع المرير. . دعوت الله ودموعي تنهمل.. وتبلل موقع سجودي.. أن يرحم أم سندس من عذابها، ويغفر لها ذنوبها.

في الصباح كانت سندس قد هدأت كثيراً.. وإن بدت واهنة، ضعيفة مثل عصفور صغير عصفت به الأمطار.

تركتها نائمة ونزلت إلى صالة الإفطار. عافت نفسي رائحة الشاي برغم محبتي له واعتيادي شربه كل يوم في الصباح الباكر!!

شربت كوباً من الـكابتشينو.. تجرعته دون سكر.. بدون أن أتناول شيئاً من الإفطار الموضوع أمامي. ثم صعدت إلى الغرفة. كانت سندس نائمة وقد بدا الإرهاق والذبول على وجهها الجميل. أحسست انقباضاً شديداً يعصف بنفسي. نزلت مرة أخرى إلى بهو الفندق. تصفحت الجرائد الموضوعة على الطاولة. كلها مكتوبة باللغة الإيطالية والألمانية. نظرت إلى ساعتي.. كان الوقت هو العاشرة صباحاً والزمن يمضي بطيئاً.. بطيئاً في ضجر قاتل.

مرة أخرى ذهبت الى الغرفة. عاينت سندس.. نائمة كملاك جميل، لم أشأ إزعاجها. بدلت ثيابي ونزلت إلى بهو الاستقبال. قلت للموظف المسئول..

- من فضلك.. أريد تاكسي يحملني الى المستشفى لزيارة مريضة.

رفع سماعة الهاتف وطلب رقماً ثم خرج ووقف أمام بوابة الفندق لدقائق عاد بعدها ليخبرني بوجود التاكسي، وأوصاني ألا أدفع الأجرة للسائق حتى يرجع بي إلى الفندق خشية أن يملّ انتظاري خارج المستشفى

ويتركني هناك .. وهو لا يضمن غيره من السائقين.

دخلت إلى المستشفى. قابلتني الممرضة في مكتبها بابتسامة حزينة. قالت تواسيني بلغة عربية ركيكة.. مكسورة النغمات.

- البركة فيكم. أعطتكم عمرها.

- .. ماتت؟؟

- .. ألم يخبركم أحد؟؟ لقد توفيت بعد خروجكم من عندها.. بأقل من ساعتين. لم يستجب جسمها للمهدئات وظلت تبكي وتهلوي ثم ارتفعت حرارتها لدرجة مخيفة وأسلمت الروح.

- وهل .. هل لايزال الجثمان في المستشفى؟؟

- لقد حضر نفس الرجل الذي جاء بها إلى المستشفى في الساعة الثامنة صباحاً لزيارتها كما اعتاد أن يفعل دائماً. وفوجيء بخبر موتها.. لكنه قام بعمل كافة الإجراءات اللازمة مع إدارة المستشفى، وتسلم الجثمان.

ألقيت نظرة خاطفة على الساعة. إقتربت من الثانية ظهراً..

- هل لديكم عنوان السيد، الذي أخذ الجثمان؟

- لدينا رقم هاتفه داخل المدينة.. لكنني عرفت منه انه سينقل الجثمان ويسلمه إلى بعض معارف المتوفاة في قريتهم.

أخذت منها رقم الهاتف وخرجت أتحامل على نفسي وعدت الى الفندق. طلبت من موظف الإستقبال إستدعاء رقم الهاتف.. وكان الرد إنه سكن مفروش مشترك وقيل أن المدعو "تسفاي" قد ترك السكن، وانه قد أرسل صديقاً له دفع ما تبقى عليه من أجرة السكن وتسلم عنه أغراضه الشخصية.

«٢٠»

عند دخولي إلى غرفة الفندق، وجدت سندس تجلس على طرف السرير، وقد بدت مريضة شاحبة اللون. نظرت إليها في شفقة.. وأنا لا أدري كيف سأستطيع أن أوصل لها خبر وفاة والدتها.

- أين كنت يا ماما؟؟

فاجأني سؤالها فلم أجب وبقيت صامتة.

- هل ذهبت إلى المستشفى؟

- ... ...

تهدج صوتها وهي تقول بخوف..

- لماذا لا تكلميني؟! هل.. هل ماتت السيدة؟؟

رغم حزني العميق ومعاناتي القاسية فقد استفزت مشاعري كلمة السيدة التي أطلقتها على والدتها، وإن كان خوضها مباشرةً في موضوع الموت، قد سهّل عليّ الكثير من المقدمات والحواشي الكلامية التي كنت أعدّ نفسي لها.

- هل ماتت..!!

- نعم.. توفيت أمك بعد خروجنا من المستشفى بأقل من ساعتين.. حين ذهبت إلى المستشفى.. كنت نائمة ولم أشأ ازعاجك. كنت أريد التحدث معها قبل أن أذهب معك لرؤيتها عصراً.. ولكن.. أخبروني بوفاتها.. حتى الجثمان أخذه أحد أقاربها ولم أستطع العثور على عنوانها

وضعت رأسها بين كفيها وأخذت تبكي.. أخذتها في حضني.. شاركتها البكاء لفترة قصيرة.. كانت ترتجف.. بشدة.. لاحظت حرارة جسدها فأبعدتها عني في رفق وأرقدتها على السرير وأنا أقول..

- سندس يا حبيبتي.. هذا قضاء الله ولا راد لقضائه. حمداً لله أننا رأيناها وحققنا رغبتها في رؤيتك قبل موتها.. سبحان الله.. كأنها كانت فقط تنتظر مشاهدتك لتغمض عينيها للأبد!!

في ذلك المساء.. إتصلت بعادل هاتفياً وأخبرته بما حدث منذ حضورنا.. بدا التأثر واضحاً في صوته ، وطلب التحدث إلى سندس. قلت في صوت باك هامس..

- ترفق بها. فصحتها ليست على ما يرام لقد كان كل ما حدث كابوساً شديد الوطأة عليها.

تحدثت سندس إلى والدها وهي تبكي.. تحدث إليها طويلاً وقد أخبرتني فيما بعد انه يبكي وهو يحدثها عن اللحظات الحلوة التي عاشها مع أمها ومحبته الشديدة لها منذ لقائه الأول بها. وذكرياتهما الحلوة أيام معرفتهما الأولى التي كانت في نفس الفندق الذي نحن فيه. وأخبرها بأن ما حدث بعد ذلك من خلاف بينهما قد زالت آثاره تماماً من

نفسه، وهو لا يحقد عليها الآن.. بل يطلب لها الرحمة والمغفرة. وذكر لستدس انه يرحب بها دائماً.. في بيته ووسط أولاده في كنفا. فقد رزق بصبيين من زوجته الكندية وليس له بنت غيرها..وأنها ستظل أبداً حبيبته الأثيرة.

بكت كثيراً.. ثم قامت إلى الحمام.. خفت عليها من ضعفها. وقفت بقرب الباب وأنا أخشى أن أسمع صوت ارتطامها بأرضية الحمام. حين رأتني واقفة بعد خروجها اندهشت ونظرت إليّ باستغراب. لكنها ابتسمت حين شرحت لها مخاوفي وعانقتني بحنان. قلت وأنا أشرق بدمعي..

- خفت عليك.. كل هذه المشقة كثيرة جداً على ابنتي الناعمة الرقيقة.

إقتصبت ابتسامة أخرى وهي تقول..

- كل ما يحدث ..كما تقولين، أعتبره كارثة مخيفة.. ولكن لا تخافي يا ماما.. بنتك قوية والحمد لله.. أنا تلميذتك يا ست الحبايب.. لن تحطمني الصدمة، سأتجاوزها ولو من أجل خاطرك انت.. وبابا!!

مسحت دموعي وقد أراحني حديثها وطمأنتني ثقتها بنفسها.

لبست ستدس جلبابي فوق البلوزة والبنطلون اللذين كانت تلبسهما.. ثم عصبت رأسها بوشاح أبيض..وبدأت في صلاة طويلة.

تمددتُ فوق السرير وأنا أرقبها في سعادة أم عرفت نجاح صبرها في تربية ابنتها وتذوقت ثمار تنشئتها. أشارت اليّ ستدس وقالت، دون أن ترفع عينيها عن الأرض وقد جلست في خشوع تام فوق سجادة الصلاة..

- لو تسمحين يا ماما.. أعطيني المصحف الشريف.

بهدوء تام ناولتها المصحف.. ثم خلعت السبحة الخضراء الجميلة، التي كنت أزين بها معصم يدي اليمنى، ووضعتها أمامها.

«٣١»

لم تعد سندس أبداً إلى طبيعتها المرحة اللاهية.. بدأت طباعها تتغير، أصبحت تميل إلى الصمت وأيضاً، الوقار والإحتشام المبالغ فيه.. وكأن تجربة الأشهر الماضية قد أضافت إلى عمرها عشرات السنين. كانت تداوم على الصلاة وقراءة القرآن يومياً، صباحاً ومساءً.. وصارت تصوم يومين من كل أسبوع. كنت ألاحظ هذا، العبادة والسهر واضحاً على وجهها وبدنها، ولكنني إلتزمت الصمت التام وتركتها خياراتها، وقناعاتها الذاتية وقد أصبحت فتاة راشدة.

سعدت كثيراً يوم أخبرتني برغبتها في ارتداء الزي الشرعي واستبدال كافة ملابسها بأخرى.. طويلة وفضفاضة. لكن قلقاً داخلياً كان يلازمني، خوفاً من أن يكون ما يحدث لها من تغيير مفاجئ، هو نتيجة لهزة نفسية داخلية شديدة. فكرت أن أستشير طبيباً نفسياً خصوصاً وأنه كانت تعتريها أحياناً نوبات متواصلة من البكاء، بدون أسباب واضحة، تبدو خلالها وكأنها تعاني من حالة إكتئاب مرضي.

عندما أخبرت عادل بمخاوفي انزعج بشدة، وتحدث اليها كثيراً. ثم أقنعها بضرورة سفرها إلى كندا لتغيير الجو المحيط بها وللترويح عن نفسها.. ورؤية أخويها. لاحظت أن فكرة السفر قد أعجبتها وراقت لها لكنها خشيت أن تظهر هنا مراعاةً لمشاعري وهي تعرف تماماً مدى تعلقي الواله بوجودها في حياتي. كتمت انفعالاتي وأنا أداري ضغطاً عاطفياً هائلاً وقلت أشجعها..

- لابد من سفرك.. ستكتسبين خبرات واسعة تنفعك في سنوات عمرك المقبلة، وهي فرصة لك لتتعرفي على أبيك وإخوتك عن قرب. لا تحملي همي.. قريباً ستلتحقين للجامعة وبعدها ستتزوجين ان شاء الله.. وترحلين مع زوجك، للأسف الشديد لن أستطيع أن أستبقيك في أحضاني طول العمر. لكنني حتماً سأشعر بالسعادة وأنا أرى ابنتي الصغيرة وقد أصبحت إمرأة ناجحة لها كيانها المستقل الخاص.

ابتسمت سندس. طبعت قبلة دافئة فوق جبيني. ثم ضحكت.. لأول مرة منذ زمان طويل.. وقالت لي مرح إفتقدته كثيراً..

- لن أستطيع فراقك أبداً مهما كبرت.. كلها اسبوعين أو ثلاثة وأعود إليك على أجنحة الشوق واللهفة.

- أنا على استعداد لإحتمال فراقك كل هذه المدة الطويلة بشرط أن تعودي سندس.. إبنتي الحبيبة المرحة التي أضاءت حياتي بإشراقات السعادة منذ أن حملتها بين ذراعيّ طفلةً عمرها اسبوع ووسدتها قلبي.

- أعدك بهذا.. سأحاول أن أتخطى كل الأحزان من أجلك، وحتى لا أرى هذه النظرة المهمومة القلقة في عينيك .. يا أحسن ماما في الدنيا.

حاولت التظاهر بالسعادة حتى لا أفسد عليها بهجتها.. ولكنني في

الحقيقة كنت أشعر بالمرارة تغطي أعماقي فأنا فعلياً لا أدري كيف سيكون لون الحياة وطعمها وإيقاعها اليومي بدون وجود سندس فيها.

كانت فترة تكلمة إجراءات سفر سندس لكننا مرهقة وسخيفة.. أذونات تأشيرات الخروج للنساء ينبغي التحصل عليها من وزارة الداخلية. ويجب موافقة وزارة الشئون الإجتماعية.. لأنها مسافرة دون رجل محرم مرافق !! إشكالات كثيرة ومعقدة يقوم بتنفيذها شباب مستحدثي اللحي، لا يفقهون شيئاً، ولا يستطيعون النظر عميقاً في حكمة التشريعات الإسلامية السمحة التي وضعت بسبيلها، والواحد منهم لا تتجاوز سعة مداركه طول لحيته. التشريع يقول إن "الدين يسر... وليس عسر"، ويعلمنا.. "إن بعض الظن.. إثم"، ومثل هذه الإجراءات الشكلية المعقدة، تفترض سوء الظن سلفاً بكل إمرأة مسافرة!!

بعد معاملات كثيرة ومرهقة استطعت تجاوز كافة الإشكالات وجاء يوم السفر.. صحبت سندس حتى المطار وحاولت في جلد مقاومة انفعالاتي الجامحة والتحكم في رغبتي الشديدة في البكاء.. وأنا أراها تبدو سعيدة.. مشرقة، وإن كنت أحس بتهيبها لبعادها عني وخوضها لتجربة جديدة بالنسبة إليها كالسفر، ومقابلة آخرين ومعايشتهم وهم حتى تلك اللحظة غرباء عنها.. وإن كانوا أقرب الناس إليها.

عانقتها طويلاً لحظة الوداع.. وقد تفجرت مشاعري، وأنا أوصيها بأن تكون عاقلة وشجاعة وأن تعود بسرعة. وبكت كثيراً.. وظلت صورتها مطبوعة في ذهني، تستفز مدامعي كلما استحضرتها وهي تلوح لي بيدها.. وتحاول باليد الأخرى تجفيف سيل دموعها الذي أغرق وجهها

الجميل الحبيب.

وقفت أراقبها وهي تنهي إجراءات السفر والمغادرة ثم تلوّح لي مودعة مرة أخرى وتدخل صالة المسافرين. كنت أحاول.. عبثاً السيطرة على نوبة البكاء التي امتلكتني.

وبقيت في المطار لأكثر من ساعة بعد إقلاع الطائرة وأنا أوهم نفسي بأنني أريد أن أطمئن على سفرها بالسلامة.. لكنني حقيقةً كنت لا أريد العودة إلى البيت، بخوائه وصمته ووحشته التي تنتظرني.

أرعبني صرير الباب حين فتحته. كان الجو بارداً، والفوضى تحيط بجو الصالة. وقد تبعثرت فيها بعض أشياء سندس التي لم تستطع وضعها في حقائبها المكتسة بالأحذية والألبسة وبعض الكتب.

أخذت في روتينية ضجرة، ألتقط الأشياء المبعثرة فوق الأريكة وعلى الكراسي في محاولة لترتيب المكان. كانت الطاهية العجوز التي تخدمنا قد سافرت في إجازة عند سفرنا أنا وسندس إلى أديس أبا لكنها تأخرت في العودة، مما جعلني أقوم بكل المهام المنزلية بنفسي.

إنتظمت الأشياء في أماكنها. ألقيت بنفسي على الأريكة.. كانت الساعة العاشرة لاتزال.. وطائرة سندس قد أقلعت في السابعة صباحاً!!

عبثت بأزرار "الريموت كنترول" وتوقفت عند محطة التلفزيون المحلية. كانت تبث تغطية مباشرة لتخريج دفعة من طلبة المرحلة الثانوية من أحد معسكرات التدريب. كان حفل التخريج يقام في أرض ملعب دار الفريق القومي.. لاحظت بأسف شديد كيف تخربت أرضية الملعب وتدمرت تماماً والصبية الصغار يمارسون عروضهم العسكرية.. يطلقون النار.. بل يوقدون نيراناً فوق النجيل الأخضر أثناء إستعراض تدريبهم على اجتياز

الخواجة!! الملعب الوحيد الذي تستضيف فيه الدولة الفرق الرياضية الزائرة، تحول الى ساحة للطابور وتدريبات ضرب النار والعراك، وأصبح لون الميدان الأخضر الجميل يشبه لون مراعي النوق في بطاح غرب السودان.

كان الصبية الصغار يتصايحون ويتقافزون في خطوات عسكرية منتظمة واضح انها نتيجة مجهود عسكري شاق وعنيف. زغردت بعض النسوة الملثمات بأصوات مكتومة باردة، والصبية يهللون ويهرولون بطريقة نظامية بعد أن عقد كل منهم منديل الفرح الأحمر فوق جبينه إيذانا بأنهم عرسان.. نحن من أرهقنا نسيج أسطورة لنضحك بها على عقولنا، ونفسر أحلامنا.. العرس عرس، والحرب حرب، والموت موت.. والدفاع عن الأوطان واجب.. وشرف لا يدانيه شرف.. لماذا نخلط بين الأشياء ومختلف الأمور..؟؟

تنهدت في حزن وأنا اتابع فقرات الحفل.. آآه.. إن الجهاد فضيلة في سبيل الوطن، وفي سبيل مبدأ محدد يؤمن به المجاهد عن إقتناع تام.. وهؤلاء الصبية يحاربون من أجل وحدة السودان، يساقون إلى المعارك بعد تدريبات قصيرة تكاد تكون إستعراضية أكثر منها عسكرية، ويزج بهم في حروبات إقليمية بغيضة لم يقتنع أحد بجدواها. منذ سنوات طويلة وحكومة الخرطوم في الشمال تحارب - في استماتة - من أجل الوحدة الوطنية، بينما تحارب قوات المعارضة في الجنوب مطالبة بحق تقرير المصير. سقط الآلاف من الصبية والشباب وطلبة الجامعات قتلى في معركة غير متكافئة. وحصدت أمراض الغابات وحشراتها الطائرة والزاحفة أرواحهم الغضة وملأت الحسرة القلوب والبيوت، وتوقفت

مشاريع التنمية بعد أن استنزفت الحرب الأهلية كل موارد البلاد وطاقاتها المادية والبشرية... ثم ماذا حدث!! شعر بعض العقلاء بفداحة ما يرتكب من ظلم في حق البلاد باسم الوحدة الوطنية، وبدأوا ينادون بحق تقرير المصير للجنوبيين.. وانفصالهم عن الشمال اذا أرادوا هم ذلك. ولأن الكثيرين قد تعودوا لعبة الحرب بحيث أنه لايمكنهم التخلي عنها، وقد أصبحت بالنسبة إليهم مهنةً وارتزاقاً وادماناً.. فإنهم لا يستسيغون العيش تحت نظام اجتماعي، سلمي مستقر.. وارتفعت أصوات كثيرة جلّها من الجنوبيين والمتشددين عرقياً ودينياً ترفض الإنفصال وتنادي بالوحدة الوطنية.!!

كنت أتمدد على الأريكة وقد بدأت في التثاؤب، والنعاس والخمول يتناوشان جسدي، لكن عقلي ظل مستيقظاً.. متنبهاً لضجيج الأفكار القلقة التي تنتابه. وأنا أتأمل في التعاقب ذاهل.. حديثي مع نفسي وكأنني أحاور شخصاً آخر.

إنتهى حفل التخريج العسكري، وبدأ عرض برنامج يتم بثه يومياً عن قتلى الحرب في جبهات القتال في جنوب السودان من غير العاملين في الجيش النظامي، أطباء ومهندسين ومعلمين وطلبة وأساتذة جامعات.. كلهم كانوا في عنفوان شبابهم وعطائهم.

تململت كثيراً.. ونهضت من مكاني، أدرت جهاز التكييف، ثم جلبت دثاراً من الصوف.. غطيت به نفسي جيداً وأنا أتمدد مرة أخرى فوق الأريكة وأتابع حوار أفكاري. قلت لنفسي إن أهداف مبدأ القتال في جنوب السودان قد تغيرت كثيراً الآن، واهتزت ثوابت الحرب، لكن مابقي ثابتاً ولم يتغير هو أن الآلاف من الطلبة والشباب والصبية

يُحشدون ويُحشرون في اللواري "والدفارات" يومياً، ويرسلون إلى ساحات القتال. يذهبون لا يعود معظمهم، وبعضهم يعودون بعاهات جسدية تجعلهم عبئاً على أسرهم في بلادٍ تفتقد أبسط مقومات العلاج في المستشفيات التي تظل الكهربا، والمياه مقطوعة عنها لأيام متتالية. والذين يعودون وأجسادهم سليمة تظهر بينهم حالات المرض النفسي.. وماذا نتوقع من صبيةٍ يساقون بالآلاف إلى ساحات القتال مع زملائهم ويعودون عشرات مفردة؟!!

آه.. آه.. الشباب في كل بلاد العالم يعمرون المساجد ودور العلم وملاعب الرياضة. وشبابنا تحصدهم محرقة الحرب الأهلية.

عندما استيقظت.. لم أنتبه.. هل كان نوماً أم إغماءً؟! كان الوقت عصراً. وأنا لا أزال ممددة فوق الأريكة.. بينما صوت أبواق الحرب وطبولها.. وصراخ نشيدها يتعالى من جهاز التلفاز.

وأكثرها إنتشاراً، ومن غير المعقول أن أترك كل ما اكتسبته بعد جهدٍ ومكابدة.. لأبدأ من الصفر في كتنا. لكن السبب الأقوى.. بين كل هذه الأسباب هو أنني كنت أعرف عن نفسي.. إنني كالسمكة التي تموت إختناقاً إذا خرجت من محيط البحرالذي تعيش فيه.. وإنني لن أستطيع التنفس خارج إطار هذا المجتمع التعس الذي أنا جزءٌ من مكوناته الطبيعية.

كنت أفتقد سندس، أشعر بقساوة الوحدة ووحشتها. فكرت كثيراً في الكتابة لعاصم.. ليس كزوج، ولكن كصديق عشت معه أجمل سنوات عمري. لكن كبريائي منعتني، كنت أخشى أن يفسر رسائلي إليه على إنها استدراج لعواطفه ليعود لمعايشتي. كنت أسير في حياةٍ سهلةٍ، ميسورة، مادياً واجتماعياً. أمتلك سكناً جميلاً مزوداً بكل احتياجات الرفاهية التي توفرها تكنولوجيا العصر الحديث. عادت الطاهية القديمة إلى خدمتي بإخلاص ومحبة. أقضي أمسياتي في القراءة والكتابة والتفرج على القنوات الفضائية المختلفة عبر جهاز التلفاز الفخم الذي جاءني هدية من أخي عادل. أحياناً أقود سيارتي المرسيدس السوداء الفارهة التي تثير غيرة جاراتي بشدة، وأذهب لزيارة صديقتي كوثر أو لرؤية بعض الزملاء من الكتاب والأدباء في النادي الثقافي في ضاحية القرن. في نظر الكثيرين حولي كنت ذات الشخصية الجذابة التي تستأثر بالإهتمام بلاحدود وبالإحترام أينما حللت كما كنت أيام الجامعة.

لكنني في داخل نفسي كنت أحترق وحشةً وغربة.. يمتد الصمت والخواء أمامي وحولي خطان متوازيان، أندفع فوقهما مثل قطار يسير بخفرٍ رملي، وتتسرب سائرته تتسع حزناً شفيفاً يطوق البراري

السكينة في أعماقي بعطش صحراوي قاتل.

في إحدى الأمسيات الشتوية الباردة.. وقفت أمام مكتبتي.. نظرت إلى صفوف الكتب المتراصة. كنت قد قرأت معظمها، فأنا قارئة نهمة.. أمتص أوراق الكتب والمجلات الأدبية في الليالي الطويلة الموحشة وأتحاور معها بشوق لا يمكن أن يطابقني عليه أحد!! تحولت بنظراتي إلى طاولة الكتابة و "القلمة" التي تحتوي عدة أقلام من الحبر السائل بألوان مختلفة. نظرت إلى أوراقي ودفاتري في حنين وشوق.. أوراق بيضاء.. كثيرة، بينها بعض الأوراق مكتوب عليها مقتطفات من أشعار عبدالرحيم أبوذكري. زمن طويل مضى منذ آخر مرة كتبت فيها.. أحسست بدقات قلبي تتسارع.. والدماء تصعد بقوة نحو شرايين رأسي. جررت الكرسي برفق. تحسست بيدي وجه الورقة الأبيض الناعم الملمس.. تناولت قلمي. تشممت عطر الحبر الأسود.. شعرت بنشوة تهز أرداني، وتذكرت رأياً قرأته.. لا أذكر صاحبه.. يقول ان الورقة عذراء لا يفض بكارتها حقاً إلا كاتب فحل.

هل الفحولة وقفٌ على الرجال فقط؟! ألا تكون المرأة فحلةً أيضاً؟! وقفز إلى ذهني هاجس أحزنني... هل الفحولة مرتبطة بالإنجاب؟! إذا كانت الإجابة لا.. فإنني سأعتبر نفسي إمرأة في غاية الفحولة.. وأنا واثقة ومدركة تماماً إنه بإستطاعتي الآن جعل كل الأوراق البيضاء أمامي حبلى بحبيرات صاخبة وناطقة.

جلست على الكرسي.. قلت لنفسي، وقلمي يلامس صدر الورقة في لهفة.. لم يتبق في دنياي سوى الإحتراق بنيران الحروف.. والكتابة.. ياقلبي لا تحزن!!

وبدأت في كتابة رواية تعالج آثار الهجرة عند العرب المرحلين النازحين من بوادي غرب السودان إلى أطراف العاصمة الوطنية. بطلة الرواية فتاة من أسرة واسعة الثراء، يملك أهلها ثروة حيوانية ضخمة، ووالدها من كبار الأعيان في قبيلته. ثم ضربت منطقتهم عوامل الجفاف والتصحر. وفقدوا كل شيء يملكونه. ونزحوا إلى مشارف المدينة الكبيرة. وأصبحت هجرتهم وبالاً عليهم. واضطرت الفتاة سليلة العز والجاه إلى العمل خادمة في أحد البيوت الكبيرة. صاحبة البيت حسب سياق الرواية على قدر باهر من الجمال. لكن بطلة الرواية كانت تنحدر من قبيلة «دار حامد». وفتيات هذه القبيلة مشهورات بجمال اللون والتكوين الجسماني البديع. وهكذا بدأ الصراع الأزلي بين السيدة وربيبتها على قلب سيد المنزل.. صاحب العين الزائغة!!

لكنني شعرت أن الأحداث تدور في سياق روتيني ضحل.. ويجب أن أبحث عن وقائع جديدة. وقررت الذهاب إلى أماكن تواجد قبائل النازحين في استكشاف ميداني. كانت التجربة مثيرة ومثمرة. أزاحت الكثير من الرتابة عن حياتي.. يومياً أحمل الأواني التي يتم فيها إعداد الشاي والقهوة. وموقداً صغيراً للنار وبعض الفحم في كيس من البلاستيك. ثم أتركه عرضي على مشارف مناطق تجمعات سكن النازحين في حي السوق.

أحمل "القفة" التي تحتوي أواني الشاي والقهوة وكيس الفحم، بيدي اليمنى وبيدي الأخرى أحمل موقد النار. أتوقف عند موقف عربات الكارو .. أستأجر واحدة.. ثم أطلب من السائق أن يحملني إلى مكان السوق الذي يطلق عليه إسم "سوق الناقة".

سعيدة كنت بشكري. الثوب القديم الحائل اللون، الذي مزّقت أحد أطرافه ثم خيطته بالإبرة.. شبشب "السفنجة" المتسخ البمبي اللون، وخصلات شعري المضفورة جدائلاً كثيرة تتدلى فوق أكتافي!! كان سوق الناقة عالماً كثيف الداخل، مدهشاً ومختلفاً تماماً عن كل العوالم التي عشت فيها من قبل. كنت أعرف جيداً كيف أتقن لهجة نساء دار حامد.. وأتصرف وأتحدث مثلهن. فقد عملت معي إحداهن حقاً حين ضرب الجفاف والتصحر تلك البقاع لمدة سنتين، وكانت فتاة جميلة.. خدومة، مطيعة،، وطاهية ممتازة، ربما كانت هي التي أوحت إليّ بكتابة الرواية التي بدأت العمل فيها.

لمدة ثلاثة أسابيع كنت أداوم يومياً على الذهاب إلى سوق الناقة.. وحقاً فقد استمتعت بكل لحظة قضيتها بين الباعة والزبائن وأنا أتقمص شخصية بتول بائعة الشاي. أنقع الجمر بالهبابة المستديرة المصنوعة من سعف النخيل الأخضر أقلبها بين أصابعي أناملها. تحوّل لونها إلى أبيض كالح بعد أن جفت. أهبّ النار. تتقد الجمرة. يستعر داخلي بنار الرغبة حين يحضر.. تاجر المواشي عبدالرحيم يجلس أمامي القرفصاء. بنظرة سريعة فاحصة أتسلق تكة سرواله وأنا أسبل جفنيّ في تصنع بالحياء.. له خمس أولاد ذكور وبنتان. أمدّ له كوب الشاي وأنا أشرع نظراتي في عمق عينيه الطيبتين الصافيتين. تختلج مياه البرك الساكنة في أعماقه. يرمش بسرعة وهو يسدل طرف جلبابه فوق ركبتيه محاولاً إخفاء الإنتفاخ الفاضح في سرواله. ينتفض طرف التكة المدلاة أمامي.. ينتفض قلبي كفرخ الحمام المذبوح.. تتساقط أشياء كثيرة في داخلي.. وينهض صاحياً سؤال، يعترضني كسوط القطر ويصرخ في داخلي.. هل

لو كنت تزوجت مثله، بضخامته الجسدية وفحولته الواضحة.. هل.. هل كان من الممكن أن يستيقظ رحمي ويثمر ويسقط الثمر جنياً أولاداً وبنات يملأون صحراء حياتي باخضرارهم؟!

يتأملني عبدالرحيم بشوق، سهومي وصمتي يمنحاني نوعاً من الغموض يجتذبهم إليّ. أنا أختلف عن بقية الكائنات المرحة التي تبحث عن الكسب والمتعة في سوق التافه بصخب وضجيج. أختلف عنهم بهذا الصمت الذي ألفّ به نفسي ويغلفني بنوع من الغرابة والعزلة الداخلية.

كنت إمرأة فوق عمر الشباب ناضجة، كثمرة إكتمل استواؤها.. تتأرجح بتمهل وتأبى السقوط.

ساعدني عدم الإنجاب والحياة المرفهة التي عشتها في الإحتفاظ بشبابي وجمالي الجسدي.

غسلت فناجين القهوة.. وضعت حبات المستكة على النار في المبخر ثم قلبت الفناجين فوقها الواحد تلو الآخر لإعطائها الرائحة العطرية الجميلة بينما أرقب الدخان الكثيف، يحوم بداخلها وحولها ضباباً، في لون الرماد الذي يسكن أعماقي وأنقلها في سرعة من يدي إلى صينية النحاس المنقوشة. إمتلأت الصينية بالفناجين بينما ظلال من الدخان الرمادي تحوم حولها. كان شكل الفناجين فوق الصينية كقباب صغيرة بيضاء بنقوشها الزرقاء جميلاً. تأملت صينية النحاس وحوافها المنقوشة بدقة جمالية بديعة.. ألحت على نفسي الذكرى تهزني بقوة حين تذكرت أنني اشتريت الصينية من خان الخليلي حين ذهبت في زيارة لمصر مع زوجي.. كانت أياماً جميلةً رائعة ممتعة.. تلك التي عشت فيها مع زوجي عاصم. تمالكت نفسي.. وتابعت عملي.. كنت أسكب الشاي والقهوة في

القناجين المعطرة بهدوء ظاهري.. أناولها للزبائن.. وأنا أراقب الناس والأشياء والأحداث من حولي بشغف ومتعة لا حدود لها. كنت أتمنى أن تطول ساعات النهار أكثر لأظل مدة أطول في تلك الأجواء الغرائبية المدهشة.

خلال فترة ترددي على سوق الناقة.. حلمت بعاصم كثيراً.. كنت أحس بطيفه يحوم حول جسدي بإلحاح قوي.. أصحو وأنا أرتعش، وأقاوم رغبة عنيفة في البكاء.. في بعض الأحلام، تتداخل صورته بطريقة مدهشة بملابسات أحداث عشتها مع محمود... !! طيف محمود كان يحوم حولي وأنا ساهرة أتابع كتابة الرواية... بحنانه الوافر.. بذكائه الثاقب، وتعليقاته المرحة الساخرة. أضع القلم أحياناً لأفكر.. هل كانت هذه الرواية ستعجب محمود.. لو أنه قرأها؟؟

ولكن حين أذهب إلى فراشي.. فإن طيف عاصم هو الذي يبقى يلازمني وأنا أتدثر بالأغطية الصوفية الدافئة في ذلك الشتاء البارد.

بالرغم من كل ألوان الرفاهية والراحة في حياتي، المثقلة بمقاييس مختلفة فكرياً واجتماعياً، إلا أنني كنت أحس بوحشة وجودي كامرأة وحيدة تفتقد وجود الأبناء والزوج.. والكيان الأسري الذي تذوقت نعمته.. لكن كبريائي الجريح.. رغم إشتياقي العارم، لترجع مزولة ومزاية، إلى حياتي مع عاصم منعني من مصالحته.. بل إنني لم يساورني الندم ولو للحظة عابرة على قراري بالإنفصال عنه.

«٢٣»

الساعة توازي الثامنة والربع مساء، حين رنّ جرس الهاتف. كانت الظاهرة قد استأذنت رجاء في الذهاب إلى قريتها لمدة يومين.. ورجاء في استغراقها الكامل في كتابة أحداث الرواية، كرهت أن يقطع عليها أحد تسلسل أفكارها. جرس الهاتف يرنّ.. في إلحاح. بعصبية شديدة.. واحتجاج صامت رفعت سماعة الهاتف الموجود بقربها ، قالت بتكاسل..

- أهلاً.. وسهلاً؟!

- إزيك.. ؟! إزيك يا ست الناس؟!

- ... ...

إنها طريقته في مخاطبتها بالتحية.. ذلك هو صوته.. ملهوفاً.. مشتاقاً ومنكسراً!! هل يكون هذا حقيقة.. أم أنها بعض تهيؤات الكتابة؟!

- رجاء.. هل نسيت صوتي أيضاً؟!

وانفجر دوي هائل في رأسها.. إنه صوت عاصم.. تستطيع أن تميزه من بين ملايين الأصوات. ما الذي جعله يثب إلى حياتها مرة أخرى بعد

هذا الزمان الطويل من الغياب!! انها لم تسمع رنة جرس محادثة خارجية.. هي متأكدة من هذا رغم ذهولها.. هل يمكن أن يكون موجوداً في الخرطوم الآن؟!

- رجاء.. أرجوك ردي عليّ.. إنني مشتاق إلى معرفة أحوالك.

بحثت عن صوتها.. كتمت إنفعالاتها ولهفتها وقالت..

- أنا بخير والحمد لله. لم يحدث لي سوء لم أمت بعد أن تركتني وتزوجت أخرى.

- حرام عليك يا شيخة.. ألا زلت تحقدين عليّ؟! ألا تشفع لي محبتي لك وعشرتي الطويلة؟ هل تصدقين.. لقد وصلت قبل دقيقتين فقط من المطار.. لقد جئت في مهمة رسمية.. أشتاق كثيراً لمعرفة أخبارك.

- قلت لك إنني بخير.. ولكن ستدس..

- أعرف كل شيء عن ستدس. عادل لايزال صديقي.. لم يتركني مثلك.. نتراسل دائماً. ونتواصل عبر الهاتف. كنت أتوقع رسالة منك أو حتى تهنئة هاتفية بقدوم ابني البكر أو إبنتي.. هل تعلمين إنني أسميتها رجاء.. رغم اعتراض أمها على الإسم؟

- .. بارك الله لك فيهما..

- ما هذه الطريقة الغريبة في التخاطب..؟! واضح أن سكان الخرطوم قد تركوا أثرهم على استخدامك لمفردات اللغة العربية.

ضحكت من أمثالها لدعابته الساخرة.

- الله.. لازالت ضحكتك جميلة صافية!

- ..هل تتحدث من منزلكم؟

- لا من فندق قصر الصداقة.. لا يعرف أحد من أهلي حتى الآن إنني

في الخرطوم. سأكمل إجراءات الفندق بسرعة وأحضر إليك.. أنا أعرف عنوانك.. أريد أن أراك.

- الآن..؟!

- نعم .. الآن.. الآن وليس غداً..

- الآن لا .. أنا بمفردي في المنزل.

- نعم .. نعم! هل تخافين من وجودي معك على انفراد.. هل نسيت أنك كنت تستلقين عليّ وأنت في فراشي وفي بيتي.. وأنني لم أستطع أبداً فرض نفسي عليك من غير رضاك طيلة سبعة أشهر قبل سفرك؟!

أطلقت ضحكة صاخبة، ثم تنهدت في أسى وهي تقول..

- إنك تتذكر تفاصيل ما حدث جيداً..

- وهل يمكن أن أنسى حبي الجارف لك.. ورفضك العنيف لي؟! رجاءً.. أتوسل إليك.. لقد مضى من العمر أكثره.. فلا تضيعي ما تبقى لنا من سنوات في مكابرة لا جدوى منها.. اسمحي لي برؤيتك.. أرجوك فإنني مشتاق إليك.. بجنون!

- إنني أخاف على نفسي من حديث الناس وتقولاتهم... إذا لاحظ أحد الجيران دخولك عندي في مثل هذا الوقت من الليل.

- ليذهب الناس بأحاديثهم وتقولاتهم إلى الجحيم.. أنت لاتزالين زوجتي شرعاً.. وإن كنت أكره أن أفرض نفسي عليك بهذه الوضعية.

مرت لحظات طويلة من الصمت المتوتر.. هي أيضا كانت تشتاق في جنون إلى رؤيته.. لكنها خشيت أن ينكسر عناد كبريائها في لحظة ضعف.. عند لقائهما. قال بحدة وكأنه يريد أن يحسم الأمر..

- سوف أحضر إليك الآن.. فقط لأراك وأعدت اليك.. ولن تقف كل

سدوه العالم في طريقي.

وضعت جهاز الهاتف جانباً. نهضت واقفة. خيل إليها، أن من تحدث إليها شخص غير عاصم. من أين له هذه الجرأة في الإفصاح؟! إنه يحادثها بنفس الطريقة الجنونية التي كان يتحدث بها محمود.. هل بلغت به أشواقه إليها حداً.. أخرجه من طوره؟!

دون أن تحس ما هي فاعلة، وجدت نفسها تسرع نحو الحمام، تركت نفسها تحت رذاذ «الدُش» الدافئ، لفترة ليست بالقصيرة ثم خرجت.. إمرأة أخرى تضج بالشوق والحيوية. جلست إلى مرآتها. نظرت إلى نفسها ..جميلة هي بدون شك. إرتدت فستاناً طويلاً محتشماً.. وعقصت شعرها للخلف ثم جلست تنتظر.. نظرت إلى الساعة. حسبت أن عاصم لابد وأن يكون في تلك اللحظات في طريقه إليها.. إرتجف جسدها بعنف وازدادت ضربات قلبها. نهضت بسرعة، خلعت الفستان الطويل المحتشم. واختارت قميصاً للنوم وردياً.. يلامس بالكاد ركبتيها.. لبسته. كان عاصم دائماً يحب اللون الوردي في قمصان النوم القصيرة. فكت جدائل شعرها وتركت ذؤاباته تتأرجح على صدرها وكتفيها. بحثت عن قارورة عطر الصندل.. عطر عاصم المفضل. مسحت وجهها وصدرها وساقيها. نثرت مزيداً من العطر على شعرها وعنقها.. ثم التقت ثوباً مشجراً خفيفاً التحفته فوق قميص النوم، ونظرت لنفسها في المرآة في رضاء تام.

حين دق جرس الباب، أسرعت تدخل قدميها في نعل منزلي مفتوح يبرز تناسق قدميها الصغيرتين. تعالت دقات الجرس وكأن الطارق لايطيق صبراً.

فتحت الباب. كان عاصم أمامها.. بكل وسامته ورجولته وذكرياتهما الحلوة المشتركة. فتحت عينيها على اتساعهما في شوق. لم تقل شيئاً.. لكنها ابتسمت. إبتسم هو في لهفة مشتاقة صامتة. تنحّت عن الباب، دخل في سرعة.. وأغلقه خلفه، ثم استدار إليها. وفي لحظة خاطفة كان يحتويها في شوق جامح، وهي تستكين في أحضانه.. تغمض عينيها.. وتعلم أنها لم تتركه أبداً.

مضي الوقت. سريعاً وهما في إغفاءة، كأنها الحلم ، ثم أشعل عاصم لفافة تبغ وهو يبتسم في سعادة. قال لها بصوت منخفض..

- هل تسمحين لي بكوب من الماء..؟!

كل ما دار قبل ذلك بينهما كان همساً.. في اللحظة الفاصلة التي ذابت فيها ثلوج الفرقة.. تهدمت كل العوائق التي كان من الممكن أن تقف في طريق إشتياقهما الجارف.. لبعضهما البعض. لم يكن هناك سوى الحنين والحرمان وسنوات الحب التي ضاعت من عمريهما.. وكان حديث الجسد أبلغ من كل إعتذار أو شرح أو بيان.

سبقته إلى الحمام.. إغتسلت وغيّرت ملابسها، ثم بدأت في تحضير عشاء خفيف كما كانت تفعل دائماً.. عندما جلس قبالتها في طاولة الطعام بدأت تتأمل ملامحه للمرة الأولى منذ حضوره.. هو أيضاً كان يتطلع إليها في شغف ظاهر.. قال وهو يتأملها ..

- لا أدري كيف أصدق أن رجلاً عاقلاً يمكن أن يفرط في امرأة مثلك.. لكم كنت غبياً !!

قاطعته وهي تضحك في أسى..

- يارجل قل الحمد لله... أنت الآن زوج لإمرأة جميلة شابة ، ولك

منها طفلان.. مالك وامرأة عجوز.. هلم مثلي؟!
- أنت عجوز!! أحبك أيتها العجوز وأنا على استعداد لأن أفقد العالم كله وأشرك. بالمناسبة لم أحضر في مهمة رسمية كما زعمت لك. حضرت خصيصاً من أجلك أنت وتعمدت النزول في الفندق حتى لا يزعجني الآخرون.. جن جنوني حقاً عندما أخبرني عادل بأنه يحاول إقناعك بالهجرة النهائية لكندا.. طوال مرور السنوات الماضية لم أفقد الأمل في عودتك لي.. كنت أنتظرك بحب وتفهم كامل وأنا آمل أن يداوي الزمان ما تعتبرينه أنت جرحاً لكبريائك. زواجي من ابنة خالتي كان تنفيذاً لوصية المرحومة أمي.. ربما أيضاً لإرضاء نزعة دفينة بداخلي في الإنجاب. كنت أظن أن وجود الأبناء هو الذي يبعث السعادة في حياة الرجل. لكنني اكتشفت بعد وجودهم إن ما أحتاجه في هذه الدنيا أكثر من أي شيء آخر هو أنت.. ولن تستطيع أي عاطفة أخرى أن تغنيني عن عاطفتي الشديدة نحوك.. وحاجتي إليك كامرأة وأنثى تلهب غرائزي، وتشغل عقلي، وتحتل تفكيري في الليل والنهار.
وضعت أطباق الطعام أمامه. وهي تضحك في سعادة وتقول في مشاكسة..
- هيا إلى الأكل.. كل أيها العجوز المراهق.. ألم تشتق إلى طعامي؟!
- أنا أشتاق إليك أنت يا رجاء... إمرأة مثلك يكون أي رجل في العالم على استعداد لأن يخوض النار من أجلها.
نهض من مكانه.. أخذ بيدها. جلس على الأريكة وأجلسها بجانبه. أراحت رأسها على كتفه وهي تتنهد في راحة. مضى يتحدث في صوت

منخفض، وهو يتخلل شعرها بأصابعه تارةً ويتحسس ملامح جسدها تارةً أخرى، ثم يتوقف عن الحديث وينحني عليها ويقبل كل جزء في وجهها وكأنه لا يصدق أنه وجدها.

- هل تصدقين يا رجاء.. لقد كنت أذكرك في كل لحظة.. حتى في اللحظات الحميمة مع زوجتي كان طيف جسدك يطاردني. كنت أتبع كل تصرفاتها في مقارنةٍ غير متكافئة معك.. إحساساتها.. حديثها.. طريقة تصرفاتها وتفكيرها.. وكانت نتيجة المقارنة دائماً.. قاسية وبشعة. من يعرف إمرأة إستثنائية مثلك أو يقع في أسر علاقةٍ عاطفية معها لايمكن أن تدخل قلبه أخرى، أو تستسيغ نفسه العيش مع إمرأةٍ عادية.. تقتله بسطحية تفكيرها وتفاصيل حياتها اليومية التافهة. كان تسلّطك العاطفي على نفسي أقوى من إرادتي. هل تصدقين.. إنني مع إشتياقي الشديد لعاطفة الأبوة، كنت أستشعر الحزن والحسرة في كل مرة تنجب فيها زوجتي، وأتمنى لو كنت أنت مكانها. لو كنت أنت يا رجاء أم أبنائي.. لكنت أنا أسعد رجل في هذا الكون.

كانت تبكي.. شعر بدموعها الساخنة.. مسح وجهها بوجهه الذي تبلل.. فاختلطت دموعهما. تابع حديثه مرتجفاً في انفعال..

- هل تصدقين يا رجاء.. إنني لم أشعر بانتشاء رجولتي حقاً.. على الإطلاق.. بعد هجرك لي!! كان ما يحدث بيني وبينها.. هو ما يفعله كل زوج، حيواناً كان أو بشراً، بزوجته. لم يأتني الإحساس معها.. أبداً.. بأنني رجل أرغب بامرأةٍ أشتهيها.. وأحب كل شيء فيها بكل جوارحي مثل ما كان يحدث لي معك. حاولت نسيانك بكافة الطرق وفشلت. إتخذت خليلةً غير زوجتي.. إمرأة آسيوية تمتهن الجنس..

ولكنها كانت تجربة قذرة كرهت نفسي بعدها. لن تستطيع إمرأة غيرك إستيعاب كيمياء جسدي ورغباته.. حين ترتعشين بين يديّ... حين نرتعش معاً.. يتوقف نبض الكون، وتكف الأرض عن الدوران.

كان انفعاله قد بلغ حداً لا يستطيع كلاهما مقاومته. حملها على ذراعيه كطفلة صغيرة. أغمضت عينيها وهي تتشبث بعنقه . وضعها على السرير واندسّ بجانبها تحت دثارات الصوف الدافئة.. فتحت عينيها وهي تبتسم لتقول بصوتٍ منخفضٍ لاهث..

- هل تصدق أن طيفك.. كان يفعل بي هكذا.. دائماً في الشام..؟!

- هذا أجمل إعتراف سمعته في حياتي منك. أنا أيضاً.. أعترف، بأنك كل ليلة كنت تندسين في فراشي.. وتنامين بيني وبين زوجتي، أحياناً أنسى تماماً وجودها وأكاد أصرخ منادياً بإسمك!!

أغلقها في أحضانه وهو يضحك في سعادةٍ مستريحة.. مضت فترة طويلة من الزمن وقد غاب كل منهما في وجود الآخر تماماً. سألها عاصم وهو يلهث وسط قبلاته وتنهداتها..

- رجاء.. يا حبيبتي ..هل ستسافرين معي؟!

باغتها السؤال وخدر النعاس يتخللها ومضى يرمح داخل عقلها.. فتحت عينيها جيداً.. تفرّست في ملامح وجهه وهو ينظر إليها مترقباً.. في لهفة. وضعت نظراتها مباشرةً داخل عينيه.. وقالت في صوتٍ هامس مرتعش وقد اجتاحها الحزن...

- غداً.. غداً.. في الصباح.. نتحدث في كل شيء.

الخرطوم - القاهرة - الشارقة

١٩٩٥ - ١٩٩٨

صدر للمؤلفة



